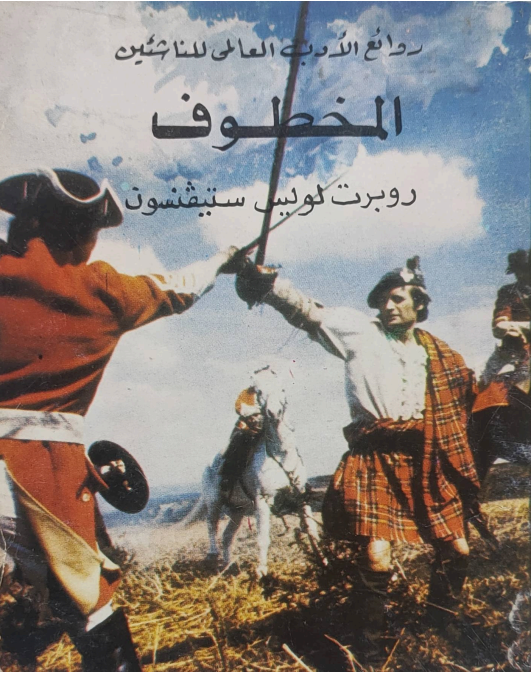
روائع الأدب العالمي للناشئين

المخطوف

روبرت لويس ستيفنسون



المخطـــوف

تـألــيــف: روبرت ستيفنسون
تبـسـيط: إيڤلـيــن أتــوود
ترجــمــة: صـبـرى الفـضل
مـراجـعـة: مـخـتـار السويفى

مهرجان القراءة للجميع
للطفل . للشاب . للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(روائع الأدب العالمى للناشئين)

المخطوف

تأليف : روبرت لويس ستيفنسون

تبسيط : إيفلين أتوود

ترجمة : صبرى الفضل

مراجعة : مختار السويفى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـــباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

المخطـــوف

اسم العمل الفنى : منظر مدينة التقنية: زيت على توال

مقاس العمل : ٦٦ × ٨٢ سم

موريس أوتريللو (١٨٨٣ - ١٩٥٥)

مصور فرنسى، تأثر بفن أمه التى ظلت تعمل كموديل للرسامين، ثم أصبحت مصورة، وكان الفنان يرسم شارع مونمارتر بباريس، وذات مرة لاحظ أن رسومه تمثل نوعًا من الاتجاه الحديث ذات النزعة البدائية التى لم تلاق نجاحًا إلاّ بعد الحرب العالمية الأولى. كان أوتريللو مستقلاً عن كل الحركات الفنية المعاصرة، وقدم أعمالاً للمناظر الطبيعية ذات المنظور التقليدى والألوان الشاحبة، تتألق بالضوء فى مرحلته البيضاء.

محمود الهندى

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

المؤلف

يعتبـــر « روبرت لويس ستيفنسون » من أعظـــم الكتاب البريطانيين الموهوبين فى أواخر القرن التاسع عشر • فهو الرومانسى الاسكتلندى ، كاتب الرحلات، الشاعر ، كاتب المقـالات ، مؤلف قصـص المغـامرات الرومانسية المحبوبة الخالدة :

« جزيرة الكنز » و « المخطـوف » (١٨٨٦) ، « كاتريونا » (١٨٩٣) ، « السهم الاسود » (١٨٨٨) ، والقصة الرمزية النفسية المرعبة « دكتـــور جيكل

ومستر هايد » التى أصبحت من أشهر روايات الأدب الكلاسيكى للناشئين ·

وقصة حياة « ستيفنسون » طريفة مثل قصصه ، مغامرة دائمة فى كفاحه الباسل ضد مرضه الصدرى الذى لازمه منذ صغره ، وفى ولعه المستمر لاكتشاف آفاق جديدة فى حبه العميق للطبيعة وللانسان ·

ولد عام ١٨٥٠ فى ادنبره ، وكان الابن الوحيد لمهندس ناجح تخصص فى العمل فى أنهار اسكتلندا وموانئها ، وفى بناء المنائر البحرية · تربى فى بيت متدين ، وكان من المتوقع رغم ضعف صحته أن يتابع مهنة والده · لكنه تأكد عندما كان يدرس القانون فى جامعة ادنبره بأنه لا يطمع الا أن يصير كاتبا ، وبدأ يلتقى بكتاب كثيرين ،قدروا فيه طلاوة حديثه وخفة روحه فيما يكتب ·

وحثته نوبات مرضه الشديدة لقيامه برحلته الأولى لفرنسا عام ١٨٧٣ التى الهمته كتابه « رحله داخلية » (١٨٧٨) و « سفريات مع الحمار فى جبال

السفين » (١٨٧٩) ، وهذا النوع من الكتابة يعد نموذجا لأسلوبه الجذاب رغم أن كتب الرحلات تهتم أساسا بولع الراوى فى اثارة الصور الذهنية ، والاجواء الغريبة ٠

تخرج « ستيفنسون » كمحام فى عام ١٨٧٥ ، وكان قد ذاع صيته فى انجلترا من خلال مقالاته فى « كونهيل مجازين » ٠ وفى عام ١٨٧٦ قابل « فانى أوسبورن » وهى سيدة أمريكية فى السادسة والثلاثين لها ابن وابنة من زواج فاشل كان فى طريقه للانهيار ٠ أحس « ستيفنسون » بأنها هى المرأة التى ينشدها ، فقرر فى العام التالى لعودتها الى كاليفورنيا أن يلحق بها ٠

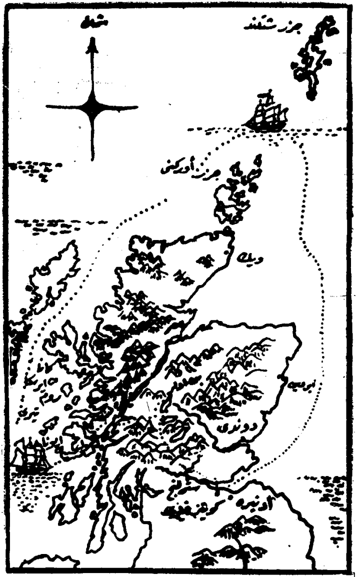
وبعد رحلة شاقة وصل الى سان فرانسسكو معدما وفى حالة صحية سيئة ٠ وفى هذه الرحلة عبر المحيط الاطلسى فوق ظهر سفينة مهاجرين الى نيويورك استغرقت أحد عشر يوما ثم بالقطار الى أقصى الغرب فى اثنى عشر يوما ، ولقد وصفها فى كتابه « عبر

السهول » (١٨٩٢) ، و « المهاجر الهاوى » (١٨٩٠) • وبعدما حصلت « فانى » على الطلاق من زوجها تزوجا فى مايو ١٨٨٠ • وكان هذا الزواج بداية لأعظم فترة انتاجية فى حياته•

أنتج « ستيفنسون » — أثنـاء سفرياته الواسعة فى البحث عن مناخ ملائم لصحته — سيلا متدفقا من القصص والروايات الرومانسية والمقالات والأشعار : مثل « جزيرة الكنز » التى بدأ ينشرها فى حلقـــات مسلسلة تحت عنوان « طبـاخ البحـــــر » (١٨٨١) بشخصياتها المعروفة الآن فى كل أرجاء العالم « لونج جون سلفر » ذى الساق الواحدة ، والصبى البطـل « جيم هوكنز » ، و « حديقة أشعار الطفل » (١٨٨٥) التى بدأها فى فرنسا ، و « دكتور جيكل » التى كتبها فى انجلترا • وعند عودته الى الولايات المتحدة فى عام ١٨٨٧ عاش فى جبال اديرونداك ، حيث بدأ فى كتابة رواية رومانسية تاريخية تدور أحداثها مثل كثير من أعماله فى اسكتلنــدا التى ينهـل « ستيفنسون » من ارضها الموحشة نبع اسلوبه القوى الفريد •

نجح « ستيفنسون » فى أعمـــاله الادبية وحقق شهرة عريضة فى كل من انجلترا وأمريكا . وفى يونيو ١٨٨٨ أبحر فى يخت استأجره هو وعائلته من ســان فرانسسكو الى جزر جنوب المحيط الهادى . وقـــد استغرقت هذه الرحلة أربعة شهور زاروا خلالها ثلاثا وثلاثين جزيرة . وكان سعيدا فى جزر الماكيز ، وهاواى وساموا ، التى وصفها فى كتابه « حاشية للتاريخ » (١٨٩٢) وفى كتاب « البحار الجنوبيـــة » (١٨٩٦) ثم أصبحت جزيرة ساموا وطنه الدائم من عام ١٨٩٠ ومات فيها فى ٣ ديسمبر ١٨٩٤ ، ودفن فى قمة جبل « فيا » هناك .

« المترجم »



رحلة ديفيد بالفور

الفصل الأول

مغادرتى للبيت

فى صباح يوم جميل من أيام شهر يونيو غادرت منزل أبى للأبد · وكان مستر كامبل ، قس كنيسة القرية ، ينتظرنى بجوار بوابة حديقته ،

وعندما اقتربت منه قال :

ـ حسن يا ديفيد ، سأمشى معك بعض الطريق ·

مشينا فى صمت دقـــائق الى أن **سألنى القس قائلا :**

ـ هل انت حزين بسبب مغادرتك «ايسندين»؟

فأجبته :

ـ لا أدرى ياسيدى ، « ايسندين » مكان طيب . لقد كنت سعيدا فيها ، لكنى لم أر الدنيا بعد . والآن بعد وفاة والدى فأنا أغادرها لابحث عن مستقبلى .

فقال مستر كامبل :

ـ حسن ، يجب أن أخبرك بشىء . عندما ماتت أمك كان أبوك مريضا جدا ، فأعطانى رسالة تتعلق بميراثك وقال لى ـ وعندما اموت اعطى ولدى ديفيد هذه الرسالة ، واجعله يذهب بهـــا الى منزل عائلة شوز .. انه غير بعيد عن « كراموند » . لقد جئت من ذلك المكان ، وعلى ابنى أن يعود الى هناك .

فصحت قائلا :

ـ منزل عائلة شوز ! هل كان أبى أصلا مـــن عائلة شوز ؟ وماذا يمكن أن يكون ميراثى هذا ؟

فاجـاب :

ـ لا أدرى ، ولكنك تحمل اسم هـــذه العائلة « بالفور » من « شوز » ٠٠ وهو بيت من البيـــوت الاسكتلندية العريقة الشريفة ٠ وكان أبوك «جنتلمان» وكان الحديث معه يمتعنى متعة عظيمة ٠ وكنت أدعوه كثيرا لبيتى لمقابلة الافاضل من أقاربى ٠

وناولنى الرسالة التى كان أبى قد كتب عليها : « الى ابنيزر بالفورد ، منزل عائلة شوز ، حامل هــذه الرسالة هو ابنى ديفيد ٠ » ٠

كان قلبى يدق بصعوبة ، فها هو مستقبلى يتضح لى ٠ لقد كنت فى السابعة عشرة من عمرى ابنا لمدرس اسكتلندى فقير ، بمدرسة القرية ٠

وسألت مستر كامبل :

ـ سيدى ، ٠٠ هل تعتقد أنه يجب على أن أذهب الى هناك ؟

فاجاب القس :

ـ نعم ، أذهب فى الحال · ان « كراموند » قرية قريبة من ادنبره · وأنت شاب صغير وقوى · توجه اليها الآن وسـوف تصلها غدا · واذا لم يرحب بك اقاربك الذين يعتبرون من علية القوم ، فيمكنك أن تعود الى ·· لكنى آمل أن يرحبوا بك هناك · والآن دعنى أقدم لك بعض النصائح ··

كان وجهه جادا عندما جلس تحت شـجرة **وبدأ يقول لى :**

ـ لا تنس صلواتك واقرأ كتابك المقـدس كل يوم ·

وأخذ يصف لى بعد ذلك البيوت العظيمة وأصحابها وخدمها الكثيرين واستمر فى نصحه لى **قائلا :**

ـ حسن سلوكك دائما يا ديفيد ·· ولا تجعلنا نخجل منك · فأنت ابن جنتلمان أصيل ، ولكنـك عشت دائما فى الريف ، فكن حكيما ، واحترم اللورد صاحب المنزل وكن مطيعا له ·

فقلت له :

ـ سأحاول يا سيدى !

فقال مستر كامبل :

ـ هذا رد طيب •

ووضع يده فى جيب معطفه **وهو يقول :**

ـ لقد اشتريت مفروشات وكتب والدك ، وها هو ثمنها ، واليك أيضا ثلاث هدايا بسيطة **منى ومن** مسز كامبل •

ووقف على قدميه داعيا لى وعانقنى للحظة مودعا ثم رجع مسرعا • وفهمت عندئذ أنه لم يحب مفارقتى •

كان حزينا ، ولكنى شعرت بالسعادة • **كنت** أظن اننى سأغادر هذه الحياة الريفية الهـادئة **لأذهب** لمنزل عظيم نشط •• وسأكون بين أناس اغنياء **وعظماء** من دمى ويحملون اسمى • وتخيلت ذلك **المكان الكبير** وهو يعج بالخدم ، وبالمفروشات الفاخرة **وبحجـراته** الواسعة •• وفجأة شعرت بالخجل ،

فقلت لنفسى :

ـ يالك من جاحد يا ديفيد · لو كنت أصيلا حقا فيجب أن لا تنسى أصدقاءك القدامى العطوفين

ونظرت لهدايا القس الثلاث ، التى كانت عبارة عن : شلن ، وانجيل ، وبعض العقاقير الريفيـــة · فوضعتهم فى صرتى الصغيرة وتسلقت التل ، ووقفت على قمته وأخذت أنظر خلفى الى « اسندين » ، فرأيت منزل القس ، وكنيسة القرية والاشجار الموجودة فى فنائها ، حيث يرقد أبى وامـــــى تحت الارض التى تظللها ·· وأخذت أسير والصرة فوق كتفى ·· !

الفصل الثانى

وصولى الى منزل عائلة شوز

وفى صباح اليوم التالى وصـــــلت الى مشارف سهل واسع ، تقع فى منتصفه مدينة عظيمة ٠ انهـا ادنبره ٠ وشاهدت البحر فى الطرف البعيد من السهل كان هناك علم يرفرف فوق القلعة وعدد من السفن فى الماء ، وكنت مندهشا لما أراه لاول مرة ٠

توقفت عند كوخ ، واستفسرت عن الطريق ، فأخبرنى رجل أن « كراموند » تقع غرب المدينـــــة ، فأخذت أمشى الى أن رأيت بعض الجنود يسيرون فى مسيرة عسكرية بالطـــريق الرئيسى ، فأحببت

معاطفهم الحمراء ، والموســـــيقى المرحة التى تعزفها فرقتهم .

وصلت « كراموند » وسألت أحد الرجال عـــن منزل عائلة شوز ، فنظر الى بنظرة فاترة فهمت منها أنه كان مندهشا لسؤالى ،

فقلت فى نفسى :

ـ لعله يتأمل ملابسى الريفية ، فهى مغبرة من وعثاء الطريق ، يبدو انه لا يجدنى لائقـــا بمنزل عظيم .

وعندما تكلمت مع أناس آخرين رمونى بنفس النظرة الفاترة . ما هى الحكاية ؟ لم استطع أن أفهم !

واثناء دهشتى رأيت شخصا مهذبا كان آتيا مع عربته من طريق جانبى .

فسالته :

ـ هل تعرف منزل عائلة شوز ؟

توقف وأخذ هو أيضا ينظر الى بتحفظ

ثم قال :

ـ نعم ٠

ـ هل هو منزل عظيم ؟

ـ حسن ، نعم ٠ المنزل كبير ٠٠

ـ والناس الذين فيه ؟

فصاح :

ـ هل أنت مجنون ؟ لا يوجد أناس هناك ٠

ـ ماذا ؟ ولا مستر ابتيزر ؟

فقال الرجل :

ـ أوه ٠ نعم ٠ اللورد صاحب المنزل ان كنت تقصده ٠ ماذا تريد من هناك يا فتى ؟

فاجبت :

– اننى آمل أن أجد عملا ٠

فصاح الرجل بحدة :

– ماذا ؟ دعنى اسدى لك النصيحة ٠ لا تقترب من منزل آل شوز ٠٠ !

ثم قابلت بعد ذلك رجلا متأنقا صغير الحجم ٠ يضع على رأسه شعرا مستعارا ابيض جميلا ، وأدركت من شعره المستعار أنه حلاق ٠ ويعرف الحلاقون كل شئ ، وكل شخص ، فهم يتبادلون أطراف الحـديث مع الناس عندما يحلقون لهم رءوسهم ٠

فسألته :

– هل تعرف مستر بالفور من آل شوز ؟

فضحك بحدة وقال :

– ابنيزر ؟ أعرفه ، ولكنه ليس بصديق لى ٠

لقد انزعجت بشكل خطير بهذه الكلمات ٠ لماذا



أشارت الى مبنى ضخم فى الوادى القريب

يتجنب الجميع منزل آل شـور ؟ لماذا لا يحب أحـد اللورد صاحب المنزل ؟ ماذا يجب على أن أفعـل ؟ كان يمكنني أن أعود الى مستر كامبل ، ولكـن المسافة أصـبحت بعيدة ، وحثتنى كبريائى على مواصـلة السير .

قابلت بعد ظهر ذلك اليوم امرأة غاضبة مكفهرة الوجه . كانت فى عينيها نظرة مجنونة ، وسألت مرة أخرى عن آل شوز . فاستدارت وقادتنى الى أعلى التل وأشارت الى مبنى ضخم أسفل الوادى القريب ، فأخذت اتأمل المنظر .

كانت الأرض بهجة للناظرين بتلالها المنخفضة وغاباتها وجداولها الرقراقة . والمحاصيل تنمـو فى الحقول بشكل جيد . بينما يقف المنزل منعزلا فى مساحة جرداء .. كان يشبه الأطلال ،فلا طريق يؤدى اليه، ولا دخان يتصاعد من مداخنه ، ولا حديقة له . كان قلبى ثقيلا عندما صحت :

ـ هذا ؟!

فنظرت اليه المرأة وصرخت بحنق :

ـ هذا هو المنزل ·· منزل شوز ! انى اكرهه . لقد بنى بالدم ! ·· وبالدم توقف العمـــل فيه ، وسيهدمه الدم ويجعله أطلالا ! ·· واذا رأيت اللورد فاخبره بكلماتى ·· اخبره أن « جانيت كلوستون » تقذف اللعنة عليه ! عليه وعلى المنزل ، وعلى كل شىء فيه !

ثم استدارت بغضب ، وولت مدبرة · ملأتنى كلماتها بالخـــوف · ففى تلك الأيام كانت الناس لا تزال تعتقد بأن اللعنـات تجلب الشر · ووجـدت نفسى انتفض مرتعشا ·

وجلست على جانب حفرة ، ونظرت الى منزل آل شوز · كان الريف البهيج مزينا بالأزهار · وكانت الخراف ترعى فى الحقول ، والارض طيبة والهـــواء دافئا عليلا ، ولكنى لم أحب المنزل ·

أخذ الفلاحون يطوفون بى من الحقول • ولـــم اتكلم مع احد منهم ، اذ لم أجد العزم لفعل ذلك •

وعند غروب الشمس رأيت دخانا يتصاعد من المنزل • كان ضئيلا جدا • لابد أن هناك نارا موقدة بالمنزل • ربما يقوم أحدهم بطهى الطعام •

تتبعت أثرا واهنا عبر النجيـــــل ، قادنى الى عامودى بوابة من الحجر الرائع ، محلى أعلاهما بشعار النبالة الخاص بالأسرة ، ولكن لم توجد بوابة بينهما، ووجدت عوضا عنها حبلا مربوطا بين العمودين كنوع من السياج •

لم تكن هناك مبان ملحقة بالبيت ، كمـا لـم يكن هناك طريق بين عامودى البوابة ، مجرد درب باهت يتلوى تجاه المنزل • نظرت ثانية فرأيت أن المبنى لم يكن أطلالا • بل كانت اجزاء منه لم تكتمل ، وأجزاؤه العليا مفتوحة للسماء عند أحد أطرافها • وهنـــاك سلالم ودرجات ، ولكن لسبب ما لم يتم تشطيبها •

وكانت النوافذ بلا زجاج ، وتطـــير الخفافيش منها واليهـا .

اقتربت من المنزل ، وكان الظلام قد حل ، ومن خلال نافذة مرتفعة ضيقة رأيت ضوء نار خافتة .. !

هل هذا هو منزل أحلامي العظيم ؟ هل يبـدأ مستقبلي المدهش من هنا ؟ وتذكرت منزل أبى الصغير في « ايسندين » . كان يمـكن رؤية ناره وأنواره الساطعة من مسافة بعيدة . وكان يرحب بكل امرىء هناك .

تقدمت ببطء ، فسمعت أحدهم يحرك صحوناً ثم سعلة جافة مقتضبة . ثم ظهر الباب الامامى في الضوء الخافت كتحفة عظيمة من الخشب الرائع ، مزين بالمسامير الكبيرة من الخارج ، ويوجد من فـوقه رمز النبالة مرة أخرى .. وبقلب واهن رفعت يدى وطرقت الباب مرة واحدة ، ووقفت وانتظرت . كان السكون تاما ، يحطمه فقط طيران الخفافيش هنـا وهناك . ومرت لحظة طويلة ، فطرقت مرة أخـرى ،

وأنصت ، ولم يتحرك أو يتنفس الشخص الذى فى داخل المنزل • ماذا كان على أن أفعل ؟ أهرب راجعا ؟ لكن كلا فالسكون جعلنى غاضبا ، فركلت الباب مرات متتالية ، وصرخت • وفجأة سمعت سعلة من فوق رأسى فقفزت للخلف ، فرأيت رجلا بأحد نوافذ الطابق الأول مصوبا نحوى بندقية من النوع القصير،

وقال :

ـ لقد حشوتها •• !

فقلت :

ـ معى رسالة لمستر « ابنيزر بالفور » • هل هو هنا ؟

فسأل الرجل حامل البندقية القصيرة :

ـ من أرسلك ؟

فقلت ثائرا :

ـ هذا لا يهم !

فقال :

ـ حسن ، يمكنك أن تضعها أســـفل الباب ، وتعود من حيث أتيت • فصرخت قائلا :

ـ لن أفعل ذلك ، يجب أن اناولها لمستر بالفور يدا بيد •

وكان السؤال التالى بعد فترة سكون طويلة :

ـ من أنت ؟

قلت :

ـ اننى لست خجلا من اسمى ، انهم يدعوننى ديفيد بالفور •

تحرك الرجل بعنف فاصطدمت البندقية القصيرة بحافة النافذة ، تلا ذلك فترة صمت طويلة ، وعندما تكلم مرة أخرى مستفسرا كان صوته مختلفا :

ـ هل مات أبوك ؟

لقد ادهشتنى كلماته ، ولم احر جوابا •

ـ نعم ! هذا هو السبب طبعا ، لقد أتيت لأنه مات .

تلا ذلك فترة صمت أخرى ، ثم قال أخيرا :

ـ حسن ، سوف أدعك تدخل !

وتحرك مبتعدا عن النافذة ..

الفصل الثالث

لقائى مع عمى

بعد ضجة السلاسل والمفاتيح ، انفتح البـاب الامامى ، وما أن دلفت الى الممر حتى أغلق الباب بسرعة من خلفى ·

وقال الرجل :

ـ اذهب الى المطبخ ولا تلمس شيئا !

مضيت فى الظلام ووصلت حجرة المطبخ · كانت المدفأة أكثر اشتعالا ، وينعكس نورها عـلى الاثاث ، فتبينت خزانة ركنيـة ذات أرفف للكؤوس والأطباق وبعض الصـناديق الخشبية الكبيرة على طول الجدار ،

كلها ذات أقفال مثبتة عليها . كما كان هناك كرسى ومائدة عليها وجبة طعام : طبق عصـيدة وملعقـة وكوب من البيرة الخفيفة . كان هذا هو كل الاثاث الموجود فى هذه الحجرة الكبيرة الفارغة بالاضافة الى قليل من الاطباق .

وعندما جاء الرجل ، رأيته نحيفا محنيا ، هزيل الكتفين ، ووجهه فى لون الطين .. كان يبدو ما بـين الخمسين والسبعين من عمره . لم يكن يرتدى معطفا ولا صديريا ، بل ملابس النوم فـوق قميص قديم ، يبدو أنه لم يقم بزيارة الحلاق منذ مدة طويلة . أخذ يراقبنى طوال الوقت ، لكنه لم ينظر مطلقا لوجهـى مباشرة ، الشيء الذى أزعجنى جدا .

ترى من يكون هذا الرجل ؟ خادم عجوز كسـول مسئول عن المنزل ؟ ولم أستطع التخمين ،

وسألنى :

ـ هل أنت جوعان ؟ ايمكنك أن تأكل هـذه العصيدة ؟

فاجبته :

ــ أنه أكلك انت ، اليس كذلك ؟

قال :

ــ أوه ، اننى لست فى حاجة اليــــه ، لكننى سأتناول البيرة ، فهى تحسن من حالة سعالى !

وشرب ، **ثم مد يده فجأة ، وقال :**

ــ دعنى أرى الرسالة ·

فاجبته :

ــ انها ليست لك ،انها لمستر بالفور ·

فقال :

ــ حسن ، ومن أنا ؟ اعطنى رسالة الكسندر ·

ــ أنت تعرف اسم أبى ؟

ــ طبعا ، لقد كان أخى ·· وأنا عمك يا ديفيد .. أنت ابن أخى .. اعطنى الرسالة واجلس وكل .. !

كان هذا الرجل عمى ! لا يمكن ان أصف خجلى
جلست على المائدة ، ولكن لم تطاوعنى نفسى على الأكل
ادار عمى الرسالة فى يديه مرة تلو الأخرى ،

وسأل فجأة :

ـ ماذا بها ؟ هل تعرف ؟

ـ لم افتحها يا سيدى ٠٠ !

ـ أه ، لكن لديك بعض الآمال ٠

ـ حسن يا سيدى ، لقد سـمعت بأن أقاربى أغنياء ، فأملت بعض المساعدة منهم ٠ لكنى لـن أستجدى ٠٠ واذا لم تساعدنى ، فلدى بعض الاصدقاء الطيبين ٠

فقال عمى ابنيزر :

ـ أوه ، لا تغضب ٠ سنكون أصدقاء ، آمـل ذلك ٠ واذا كنت لا تريد هذه العصيدة ، فسآكل أنا بعضا منها ٠ أنها طعام طيب ٠

وأخذ الملعقة والطبق منى وجلس على الكرسى، وارتشف بعضا من البيرة ،

وقال :

ـ ان كنت ظمآن ، فستجد الماء خلف الباب ·

لم أجب ، كنت غاضبا جدا ، ونظرت اليـه ، فأشاح بعينيه بعيدا ، وشعرت من غير ريب بأنه يعيش بمفرده · وانه غير معتاد على الناس ، ربما كان ذلك بسبب خوفه · **وسأل بحدة :**

ـ هل مات أبوك من زمن طويل ؟

قلت :

ـ منذ ثلاثة أسابيع ، يا سيدى ·

قال :

ـ كان رجلا كتوما ·· ، صامتا · عنـدما كان صغيرا كان لا يتكلم الا قليلا · هل تكلم كثيرا عنى ؟

ـ لم أكن أعرف يا سيدى ، بأن له أخا ·

فقال عمى :

ــ حسن ، حسن ، هل تكلم عن آل شوز ؟

ــ أبدا ، يا سيدى ٠

تسببت كلماتى فى دهشته وسروره ٠

ثم فكر قائلا :

ــ حسن ، انه كان رجلا غريبا !

وقفز قائما وربت على كتفى **صائحا :**

ــ سنكون أصدقاء ٠٠ أهلا بك ٠٠ والآن ، تعال الى سريرك ٠

دخل فى الممر المظلم وتحرك صاعدا ببطء بعض الدرج ، وتبعته ، وفتح بابا بمفتاح ٠

فقلت له :

ــ هل لى بضوء ، يا سيدى ؟

فقال العم ابنيزر :

ــ القمر الجميل موجود ٠

فاجبت :

ـ القمر غير موجود يا سيدى ، اننى لا استطيع أن أرى السرير ·

فقال :

ـ أوه ، اننى لا أحب الانوار فى المنزل · اننى اخشى الحريق ، تصبح على خير ، يا ديفيد ·

وأطبق الباب من خلفـــه بسرعة ، وأغلقـــه بالمفتاح ·

كانت الحجـرة باردة ، وتحسست طريقى الى السرير ، الذى كان رطبا جدا ، لدرجة أننى لم أستطع النوم عليه ، ورقدت على الأرض بمعطفى وصدريتى ، ونمت فى الحال ·· !

الفصل الرابع

تصرف عمي الغريب

فتحت عيني في الصباح الباكر . فوجدت نفسي في حجرة واسعة ، وكان الأثاث رائعا ، والجدران مزينة بالجلد . وبها ثلاث نوافذ كبيرة . لاشك أنها كانت مكانا لطيفا في الماضي ، أما الآن فهي مغطاة بالغبار والقذارة والرطوبة والحشرات . وسقط الزجاج من بعض نوافذها .

كانت الشمس مشرقة في الخارج ، لكني كنت أشعر بالبرد . طرقت الباب وأخذت أصيح الى أن فتح عمي الباب قائلا :

ـ يوجد بئر خارج المنزل ، يمكنك أن تغسل وجهك هناك اذا أردت ٠

اغتسلت ثم ذهبت الى المطبخ ، فوجدت العم ابنيزر قد أشعل النار ، وكان يطبخ العصيدة ، وعلى المائدة طبقان وملعقتان وكوب واحد من البيرة ٠ ورآنى عمى أنظر اليها **فسألنى :**

ـ هل تريد قليلا من البيرة ؟

فقلت :

ـ اننى أشربها عادة يا سيدى ، لكن لا تزعج نفسك ٠

فقال :

ـ لا ، لا ، سوف تحصل على بعض منها ٠

ووضع كوبا آخر على المائدة ، لكنه لم يأت بالبيرة ، بل سكب نصف ما فى كوبه هو فى الكوب الثانى ٠

وبعد الافطار تناول عمى مفتاحا وفتح به درجا أخرج منه غليونا من الفخار ، وبعض التبغ ، وملأ به الغليون وأقفل على ما تبقى منه ·

جلس يدخن فترة من الوقت ، ويسألنى سؤالا من حين لآخر وسألنى مرة :

أين أمك ؟

فقلت له أنها ماتت ، **فقال :**

ـ آه ، كانت فتاة جميلة ·

وبعد فترة صمت **قال :**

ـ ما اسم أصدقائك ؟

فأخبرته أنهم من آل كامبل من عائلة نبيلة المحتد من الهايلاند(*) · ثم أخذ يفكر لبضع دقائق **وقال :**

ـ ديفيد ، يا ولدى ، سوف أساعدك · سأضعك

(★) سكان الجبال الاسكتلندية ·

ربما في الجيش ، أو أجعلك قسا بالكنيسة ، فآل بالفور أفاضل كآل كامبل ، لكنى أحتاج لقليل من الوقت لأقرر مستقبلك ، وفى تلك الأثناء لا تقل شيئا لأصدقائك ... ولا رسائل ولا خطابات ، وان فعلت هذا فأمامك بابى .

فقلت :

ـ عمى ابنيزر ، أعتقد أن قصدك طيب ، ولكن لى عزة نفسى ، فان أشرت للباب فسوف أرحل !

لم يرقه ذلك ، **فقال :**

ـ أوه ، انتظر أياما قليلة وسوف أساعدك . لكن لا تخبر أحدا .

فقلت :

ـ حسن جدا ، ان ساعدتنى فسأكون لك من الشاكرين .

ثم أخبرته عندئذ بأن الفراش رطب وكذلك أغطيته ، وبأننى اعتدت على فراش جيد .



ارتدى معطفا وصدرية وقبعة لونهم ازرق

فقال بحدة :

ــ هل هذا بيتى أم بيتك ؟

ثم توقف فجأة ، وقال :

ــ لا ، لا ، لم أقصد ذلك . فحاجياتى هى حاجياتك يا ديفيد . وحاجياتك هى حاجياتى . فالدم أثخن من الماء ، ولا يوجد غيرنا حاليا من العائلة .

تحدث عمى عن العائلة وماضيها العظيم . وقال أن أباه قد بدأ فى توسيع المنزل .

ــ لقد أوقفت العمل ، اذ لا أحب تبديد النقود .

وذكرتنى كلماته بلعنة « جانيت كلوستون » ، فأبلغته برسالتها ، فصرخ قائلا :

ــ انها امرأة سيئة . انها تكرهنى لأنى طردتها من كوخها . سوف أعاقبها .

ثم فتح صندوقا ، وأخرج منه معطفا وصدرية وقبعة لونهم أزرق ، يبدو عليهم القدم ، لكنهم ما زالوا

فى حالة جيدة ، وارتداهم بسرعة ، وحصل على عصا من الخزانة ، وقفل الصندوق والخزانة بالمفتاح ثانية ، وذهب الى الباب ، ثم توقف قائلا :

ــ لا أستطيع أن أتركك داخل المنزل بمفردك ، يجب أن أقفل عليك من الخارج .

كانت اهانة كبيرة فغضبت جدا وقلت :

ــ اننى لست لصا يا سيدى ، اذا قفلت على من الخارج فلن نكون أصدقاء مطلقا .

كان وجهه شاحبا وشريرا ، فذهب الى النافذة وهو يرتعد ، ثم عاد بعد برهة وهو يبتسم قائلا :

ــ حسن ، سوف لا أذهب .

فقلت :

ــ أيها العم ابنيزر ، اننى لا أفهم . هل تكره وجودى فى منزلك . انك لا تحبنى . لماذا تريدنى هنا ؟ دعنى أعود لأصدقائى .

فقــال :

ـ كلا ، كلا ، اننى أحبك جدا ، فأنت ابن أخى وســـوف أســاعدك ·· انتظر أياما قليلة ، وسنكون أصدقــاء ··

قلت :

ـ حسن يا ســـيدى ، انــك عمى ، ويجب أن تساعدنى ، وسأبقى فترة قليلة ·

الفصل الخامس

اكتشفت لغزا

ومضى اليوم ·· أكلنا عصيدة باردة على الغداء ، وعصيدة ساخنة على العشاء ، فالعصيدة والبيرة الخفيفة هى طعام عمى المعتاد · وقل كلامه ، ولما استفسرت ثانية عن مستقبلى تكلم عن أشياء أخرى ·

ووجدت بجوار المطبخ حجرة مملوءة بالكتب ، فسررت لذلك ، وأثناء قراءتى خلال فترة بعد الظهيرة ، **اكتشفت شيئا غريبا ·· البوم صور طفل بين الكتب** ، كتب أبى على الصفحة الأولى ما يلى : « الى أخى ابنيزر ·· فى عيد ميلاده الخامس » · وكانت الكلمات ثابتة واضحة ·

لم أفهم ! كان أبى بالطبع ، الأخ الأصغر ، ومع ذلك كتب بشكل جيد عندما كان عمره سنتين أو ثلاثا أو أربعا فقط · تصفحت كثيرا من الكتب المسلية قديمة وجديدة ، فى التاريخ والشعر والقصص ، لكنى لم أستطع نسيان هدية عيد الميلاد هذه · وسألت عمى فى المساء :

– هل كان أبى سريعا بارعا وهو طفل صغير ؟

فأجاب :

– الكسندر ؟ كلا ، كنت أسرع منه ·· كنت بارعا جدا فى الصغر ·

كان هذا غريبا ، فسألت :

– هل كنت وأبى توءمين فى نفس العمر ؟

فقفز واقفا فأسقط ملعقته وقال :

– لماذا تسأل هذا السؤال ؟

وأمسك بمقدمة سترتى ، ونظر هذه المرة فى وجهى مباشرة · وكانت عيناه صغيرتين لامعتين غريبتين ··

فقلت مستفسرا :

ـ ماذا تقصد ؟ ارفع يدك عن سترتى ، يجب أن لا تفعل ذلك ٠

ورفع يده مرتعدا ، **وقال :**

ـ ديفيد ، يجب ان تحدثنى عن أبيك ٠ لقد كان أخى الوحيد ٠

والتقط ملعقته ثانية ، لكنه كان لا يزال يرتعش٠ لماذا أمسكنى من سترتى ؟ لماذا تظاهر فجأة بحبه لأبى ؟ ملأ الخوف تفكيرى ٠ ان كان مجنونا ، فأنا فى خطر٠٠ لكن اذا لم يكن مجنونا ، فهل كان يخفى الحقيقة ؟ تذكرت أغنية قديمة مشهورة لطفل فقير ، وعم قاس ٠ كان هذا الولد ، الوريث الحقيقى لبيت عظيم ، لكن عمه غشه ، وأخذ ميراثه ٠

ألم يسلك عمى معى سلوكا غريبا ؟ هل كنت أشبه فتى الأغنية ؟ أكنت أنا وريث آل شوز ؟

جلست ، وأخذت أرقبه ، وجلس وأخذ يرقبنى٠

لم يقل شيئا ، لكنه كان يفكر . عرفت أن أفكاره كانت شريرة . **وقال بعد فترة :**

ـ ديفيد ، لدى بعض النقود لك . كنت وعدت والدك بها . انها أربعون جنيها . أخرج دقيقة واحدة لأحضرها لك .

أخذت هذه القصة على أنها كذبة ، لكنى أطعنه وخرجت . سمعت صوت الريح فى التلال ، وكان الجو متغيرا . ثم نادانى عمى للدخول . وعد فى يدى ببطء سبعة وثلاثين جنيها ذهبيا ، أما باقى المبلغ فعملات صغيرة ، فوضعها فى جيبه . كان جشعه فظيعا .

ومع ذلك اعتبرت السبعة والثلاثين جنيها هدية كريمة ، لكنها أدهشتنى . لماذا فعل ذلك ؟ شكرته ، ولكنى ظللت أراقبه ، **وقال :**

ـ لا أريد أى شكر ، فأنا أقوم بواجبى .

وبعد فترة ، **نظر الى وقال :**

ـ والآن ، هل تقوم بعمل شيء من أجلى ٠ فانا عجوز ولست قويا ٠ هل تساعدنى فى بعض أعمـال المنزل ؟

فأجبت :

ـ طبعا يا سيدى ٠

فقـال :

ـ حسن ، سوف نبدأ الآن ٠

وأخذ مفتاحا من جيبه **وقال :**

ـ انه مفتاح برج السلم ٠ عليك أن تصعد من الخارج ، لأن هذا الجزء من المنزل لم يكتمل ٠ اصعد السلالم التى يوجد فى نهايتها صندوق يحتـوى على أوراق ٠ احضره لى ٠

فقلت :

ـ هل لى بضوء يا سيدى ؟

فأجاب :

ـ كلا ، لا أنوار فى بيتى ٠

فاستفسرت :

ـ هل السلالم جيدة ؟

فقــال :

ـ انها فى حالة جيدة جـدا • اصـعد بمحاذاة الجدار ، فلا يوجد حاجز ، لكن السلالم جيدة •

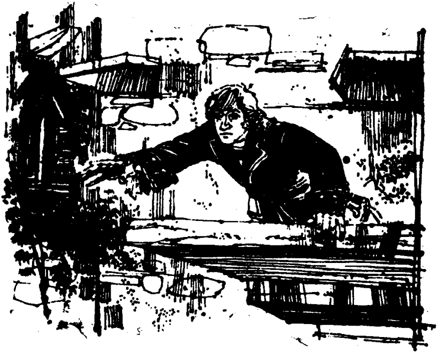
وخرجت فى الظلام ••

الفصل السادس

تسلق البرج

كانت الريح تهب من بعيد ، والليل حالك السواد ·· وصعدت ببطء بمحاذاة الجدار الخارجى ، نحو البرج ·· وفجأة لمع البرق ، فأضاء السماء ، ثم اسودت الدنيا مرة ثانية ·· وفتحت باب البرج بالمفتاح · كان الظلام دامسا فى الداخل ، لـكنى تحسست السـلالم الحجرية تحت أقدامى ، انها ثابتة وملســاء ·· لكنها ضيقة · تذكرت كلمــات عمى ·· وتســلقت ببطء بمحاذاة الجدار ·· وقلبى يدق بصعوبة ·

كانت هناك خمسة طوابق لمنزل آل شوز ، عندما وصلت قرب نهايتها ، وجدت الظلام أقل عتمة والهـواء أكثر شدة ··



وتسلقت صاعدا ببطء

لماذا كان ذلك ! ·· وفجأة ومض برق آخر ··
عرفت الاجابة ، وملئت بالرعب · أظهر البرق للحظة
مساحات مفتوحة فى الجدار ، ولاحظت بعض السلالم
أقصر من الأخرى ، وغير كاملة ·· وكانت احدى قدمى
تبعد بوصتين فقط من الهاوية !

لم أصرخ ·· الخوف منعنى ·· لماذا أرسلنى عمى
لأصعد الى هنا ؟ يجب أن اكتشف ذلك ·· وزحفت
للأمام ببطء شديد ·· على يدى وركبتى ·· وكانت
الخفافيش تطير من حولى .. وتضرب بجناحيها فى وجهى
وجسمى ·· وملأنى ملمسها بالرعب ·· لكنى واصلت
الزحف ·

كان البرج مربعا ، وفى كل ركن حجر كبير
مختلف الشكل يتصل بالسلالم المستقيمة ·· كنت أتحرك
حول أحد هذه الأركان ·· وضعت يدى خارجها لأتحسس
طريقى ·· فانزلقت على الحافة التى لا يوجد شيء وراءها
·· مجرد فراغ ؟ وتنتهى السلالم هنا ، فى الهواء ··
اذن لقد أرسلنى عمى هنا للخطر !

لقد أرسلنى لأسقط من الطابق الخامس ·· لقد أرسلنى لأموتَ ، والبرق هو الذى أنقذنى !

كنت أرتعد ، لكنى كنت غاضـــبا ، فاســـتدرت وتحسست طريقى ببطء لأهبط مرة أخرى ·· واشتدت الريح ·· وانهمر المطر ، حتى وصلت الى أسفل ·

وضعت رأسى خارجا فى العاصفة ، ونظرت تجاه المطبخ ، فرأيت بابه مفتوحا ، وينبعث منه نور ضئيل· كان عمى واقفا فى المطر ، وكان منصتا ، ثم جاءت ومضة برق ساطعة ، وقصفة رعد عالية ، فدخل عمى المطبخ راكضا ·· ربما ظن القصفة ، صوت سقوطى ·· أو ربما تطرق لسمعه صوت الله سبحانه محرما القتل !

وتبعته بهدوء ، فرأيته يفتح الخزانة ، ويشرب من زجاجة براندى كبيرة ، وترتعد فرائصه من الخوف · كان ظهره تجاهى ، فتسللت خلفه فى صمت ،

وأسقطت يدى فجاة على كتفيه وصحت :

ـ آه !!

صرخ عمى صرخة رعب حادة ، ورمى بذراعيه الى أعلى ، فأسقط زجاجة البراندى ووقع على الأرض ·

زادنى ذلك قلقا ، لكننى تركته على حاله ، وأخذت أفكر ·· لابد أن أتصرف بسرعة ·· لابد أن أجد بندقية أو أى سلاح آخر لأدافع به عن نفسى ·

كانت المفاتيح معلقة فى الخزانة المفتوحة ، فأخذتها وفتحت الصناديق · الأول كان يحتوى على حقائب نقود كبيرة ، وكمية كبيرة من الأوراق ، وفى الصندوق الثانى وجدت بعض الملابس وخنجرا قديما · ولم يكن سلاحا حادا على الاطلاق ، لكننى أحتاج لشىء ما · خبأت الخنجر تحت صدريتى واستدرت لعمى · كان لون وجهه أزرق غريبا · وكان لا يتنفس ، هل كان ميتا ؟ ·· أحضرت بعض الماء وسكبته على وجهه ، ففتح عينيه ، فرآنى ، فارتعد خائفا · وقلت له :

ــ أفق ، أفق ، واجلس !

فقال :

ــ هل أنت حى ؟ هل أنت حى ؟

قلت :

ـ نعم ، انى حى ، ولكنى لا أستطيع أن أشكرك على ذلك ·

كان يتنفس ببطء شديد ، **عندما قال :**

ـ زجاجـة الدواء الزرقاء فى الخزانة ·· زجاجة الدواء الزرقاء · فركضتالى الخزانة ، ووجدت الدواء ، وأعطيته له ليشربه · **فقال :**

ـ أنه قلبى يا ديفيد ، لدى قلب ضعيف ·

أشفقت عليه ، لكنى كنت غاضبا ، **فسألته أسئلة** كثيرة : لماذا كذب على ؟ لماذا أبقانى فى المنزل ؟ لماذا لم يجب على سؤالى عن مولد أبى ؟ لماذا أعطانى نقودا ؟ وبصفة خاصة لماذا أرسلنى الى أعلى البرج لأموت ؟

كان صامتا ، **ثم قال :**

ـ دعنى أذهب الى السرير · سأخبرك في الصباح· أعدك ·

كنت ضـعيفا أحس بالاعيـــاء ، لذلك **وافقت** · وأغلقت عليه حجرته ، وعدت الى المطبخ ، وأشعلت نارا كبيرة ، ثم رقدت على الصناديق ، ونمت ··

الفصل السابع

ذهابى الى كوينز فيرى

سقط مطر كثير ليلا ، وفى الصباح التالى كانت ريح باردة تهب بشدة من الشمال الغربى . استيقظت مبكرا وخرجت . كان هناك جدول ماء قرب المنزل ، استحممت فيه ، ثم رجعت لأجلس بجانب النار ، وأخذت أفكر . فهمت الآن أن عمى عدو لى ، وحيـاتى ليست آمنة ، ولكنى صغير وشجاع . لم أكن حكيما تماما عندما اعتقدت أنى أكثر براعة منه . وذهبت وفتحت عليـه الباب ،

وقلت وأنا أبتسم :

ـ حسن يا سيدى ، هل لك أن تفسر لى الآن ؟ لماذا أرسلتنى أعلى البرج ؟ .

فقال انها كانت دعابة ، وضحكت على هذا التفسير • **وقال :**

ــ **حسن جدا ، سأفسر لك بعد الافطار •** وفهمت أنه يجهز كذبة أخرى ، وفى هذه اللحظة كان هناك طرق على الباب • وفتحته فوجدت فتى نحيلا يرتعد من البرد ، ويرتدى ملابس بحارة • كان يرقص رقصات البحارة ليدفىء نفسه • كان مرحا ، لكن وجهه كان حزينا • **وقال :**

ــ لقد أحضرت رسالة من القبطان هوسيسون لمستر بالفور •

قدت الفتى الى المطبخ وأعطيته بعض الافطار • كان جوعان جدا ، وفى هذه الأثناء ، كان عمى يقرأ الرسالة • وعندما انتهى أعطاها لى **وقال :**

ــ اقرأها •

فنظرت اليها :

حانة الهاوس

كوينز فيرى ٠

سـيدى ،

انني موجود فى المرفأ حاليا ، وأرسل لك غلام السفينة لأسألك هل لديك أى عمل آخر لى ؟ اليوم آخر فرصة ٠ لقد تبدلت الريح ، وسوف أبحر فى خلال ساعات قليلة ٠ كانت هناك بعض المشاكل مع محاميك مستر رانكيلور ٠ عليك أن تراه ٠ لقد سحبت حوالة على مصرفك ، وسأرسل لك التفاصيل ٠

الياس هوسيسون

قال عمى :

ــ انك كما ترى يا ديفيد ، مرسل هذا الخطاب هو قبطان السفينة كوفينانت (★) . انها سفينة شراعية بصاريين ، انه يتاجر مع دول أجنبية ، خصوصا أمريكا ، ولى نصيب فى تجارته ٠ سنمشى الى هنـاك مع غلام السفينة ، ونرى القبطان فى الحانة ٠٠ وربما سـنذهب

(★) العهـد ٠

الى سفينته لتوقيع بعض الأوراق · ثم سنذهب الى محام بعدئذ ، وسيشرح لك كل شيء · انك لا تصـــدقنى ولكنك ستصدقه · فالكل يحترمه ، كما أنه كان يعرف أباك جيدا ·

فكرت برهة ، ثم وافقت ·

وقلت لنفسى :

ـ لا يستطيع عمى أن يؤذينى فى الحانة ، سأكون بين أناس كثيرين ، واذا لم يأخذنى الى المحامى ، فسأجعله يذهب اليه · هذا بالاضافة الى أننى منذ يومين رأيت البحر والسفن لأول مرة فى حياتى ، وأريد أن ألقى نظرة عليهما عن كثب ·

ارتدى عمى قبعتــه ومعطفــه القديمين ، وقفلنا الباب ، وبدأنا سيرنا ·· كان صامتا طول الطريق ، فأخذت أتبــادل أطراف الحديث مع غـــلام السفينة · فأخبرنى أن اسمه رانسوم ، ويعمل فى البحر منذ عيد ميلاده التاسع · ولا يستطيع أن يتذكر عمره الآن ، وكشف لى عن بعض علامات زرقاء على صدره · كان

يستخدم كثيرا من الألفاظ البذيئة . وقال لى أنه اقترف كثيرا من الأشياء الشريرة .

رأيته فتى غرا مسكينا ، فأشفقت عليه ، لكنى لم أصدقه . كان يعجبَ بالقبطـان هوسيسون اعجابا شديدا ، لأنه فظ غليظ القلب ، رغم أنه ليس بحارا جيدا ، فمستر شوان هو الذى يقود السفينة ، وهو أبرع بحار فى العالم وعيبه أنه يحتسى الخمر . وكشف لى عن جرح غائر فى ساقه .

وقال :

ـ انظر ، هذا الجرح من مستر شوان .

فصحت :

ـ ماذا ؟ هل تركته يضربك ؟

فقال :

ـ نعم ، سوف أقتله فى يوم ما .

فسألته :

ـ أليس لديك أصدقاء أو أقارب ؟

فقال ان أباه قد مات ٠

فقلت :

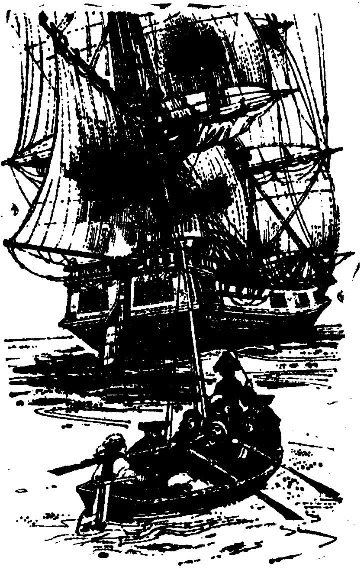
ـ لماذا لا تترك السفينة ٠

قال :

ـ حسن ، انها حياة جميلة أحيانا ٠ أحب النزول للشاطىء وأنفق بعض النقود ٠٠ وأنا أكثر حظـــا من الذين يعيشون بعشرين جنيها ٠٠ وعندما نحمل صغارا يمكنني ضربهم بالحبل ٠

فهمت أن من هم بعشرين جنيهـــا ، هم السجناء الذين ترسلهم الحكومة الى أمريكا الشمالية لمعاقبتهم على بعض الجرائم ، وكان الناس هنـــاك يشترونهـــم مقابل عشرين جنيها ليصبحوا عبيدا فى حقول القطن والتبغ .. أما الصغار ، فهم أطفال يخطفونهم من بيوتهم أو يمسكون بهم بحيلة ما ، ويذهبون بهم لأمريكا ليصبحوا عبيـــدا أيضا ٠

لقد وصلنا قمة التل ، ونظرنا الى أسفل نحـــو الماء ٠٠ كانت مدينة كوينز فيرى على مسافة منا جهـــة



نظرت أمامى نحو الكوفينانت

الغرب وتقع حانة هاوس منعزلة على حافة الشـــاطىء ، وتقلع المعدية بالقرب منه ، والناس يركبون المعـدية لعبور الماء ٠

كان بجوار الشاطىء زورق صغير ، يجلس فيـه بعض البحارة ٠ قال رانسوم انه زورق القبطان ، وأشار الى سفينة شراعية ذات صاريين ٠ كانت على بعد نصف ميل من اليابســة ، وكنت أســتطيع رؤية البحارة وهم يسحبون الحبال ، وسمعتهم يتغنون بأغنية بحرية ٠ انهم يجهزون السفينة للرحلة ٠

نظرت الى الكوفينانت برعب ، انها سفينة مخيفة تحمل من هم بعشرين جنيها ، وأطفـــالا مخطـــوفين ، سيباعون كالعبيد ، وأشفقت على كل شـــخص فوق ظهرها ٠

وقلت لعمى :

ــ لن أركب الكوفينانت مهما كانت الظروف !

الفصل الثامن

الخدعة ٠٠

وصلنا الى **الحانة** ، وقادنا رانسوم الى السلالم ٠٠ وفى حجرة صغيرة كان يجلس رجل أسمر طويل بجوار مدفأة فحم كبيرة ، ويرتدى ســـترة بحر سميكة ، وقلنسوة فوق أذنيه ٠ انه القبطان هوسيسون ، فتصافح مع العم ابينزر **الذى قال له :**

ـ حجرتك حارة جدا ٠

فأجاب القبطان :

ـ اننى من ذوى الدم البارد يا سيدى ٠٠ لقــــد أبحرت للبلاد الحارة سنين عديدة ٠

جلس الرجلان ليتفحصا بعض الأوراق ، ثم التفت عمى نحوى **وقال :**

ـ لماذا لا تذهب فى الخارج لبعض الوقت ؟

كانت حرارة الغرفة تسبب لى اعياء ، وفى الخارج كان البحر مدهشا ·· ونسيت أنه يجب على أن أراقب عمى وحيله ·· وعرفت فيما بعـد اننى لم أكن حكيما عندما خرجت ·

مشيت على الشاطىء ، وتطلعت الى الأمواج · كانت رائحة ماء البحر مالحة جدا · وبدأت الكوفينانت تفرد أشرعتها ، فجعلنى المنظر أتخيـــل الرحـلات البحرية البعيدة ، والأماكن الغريبة ·

نظرت الى بحارة الزورق الصغير · كانوا رجالا سمرا ضخاما ، يرتدى بعضـــهم القمصان والسترات وجميعهم يحملون السكاكين · وتحدثت مع أحدهم ، فاستخدم كثيرا من الألفاظ البذيئة ، وعدت بعدها الى الحانة ··

أعطيت رانسوم بعض البيرة ، وجلسنا على مائدة فى الغرفة الأمامية من الطابق السفلى · وقلت لصاحب الحانة :

ـ هل تعرف مستر رانكيلور ؟

فاجاب :

ـ أعرفه جيدا . انه رجل نزيه جدا . هل آتيت مع ابنيزر ؟

قلت :

ـ نعم .

فسأل صاحب الحانة :

ـ هل أنتم أقارب ؟ أنت تشبه مستر الكسندر !

فلم اجب ولكنى قلت :

ـ ابنيزر ليس محبوبا تماما ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ليس محبوبا . أنه عجوز سيء . كثير من الناس يكرهونه .. جانيت كلاستون وغيرها . لقد طردهم من بيوتهم . ومع ذلك كان فى يوم ما شابا ظريفا .. انما هناك حكاية عن مستر الكسندر ، وهى تسيئه .

ـ أى حكاية ؟

ـ اوه ، مجرد أنه قتله .

ـ قتله ؟ لماذا ؟

ـ لماذا ؟ ليأخذ ميراث آل شوز ٠

ـ أهذا حقيقى ؟ هـــل كان وا! ٠٠ ، هل كان الكسندر هو الابن الأكبر ؟

ـ طبعا ، أنه الابن الأكبر ٠

وبعد ذلك ابتعد صاحب الحانة حيث كان مشغولا ٠ طبعا ، لقد خمنت ذلك ، وتأكدت الآن ! فأنا مثل صبى الأغنية كنت وريث آل شوز ٠ كنت غنيا ٠٠ لدى منزل وأراض ٠ كان رأسى مليئا بأفكار سارة ٠

نظرت من النافذة ، فرأيت القبطان هوسيسون يقف بالقرب من الزورق يعطى أوامره للبحارة ، ثم عاد الى الحانة ٠ أنه رجل طويل جذاب لكن وجهه صارم جدا ، وتذكرت قصص رانســـوم عنه ٠٠ ربما كانت مختلقة ٠

سمعت عمى ينــادينى ٠٠ خرجت ، فوجـــدت الرجلين سويا ٠

وتحدث القبطان معى وقال :

– سيدى أننى أميل اليك ، فدعنا نصبح أصدقاء .. تعال على ظهر سفينتى لمدة نصف ساعة لنحتسى مشروبا معا .

فقلت له بأنى اذهب مع عمى الى المحامى .

فقال :

– أوه نعم .. أخبرنى بذلك .. زورقى سوف يوصلك للبلدة فيما بعد قرب منزل مستر رانكيلور .

ثم انحنى فجأة **وهمس فى أذنى :**

– خذ حذرك من عمك .. انه ثعلب عجوز ! تعال للمركب وسوف أحدثك عنه .

ثم امسك بذراعى وقال :

– أى هدية أحضرها لك من أمريكا ؟ لفافة تبغ ؟ أم جلد حيوان متوحش ؟ أم غليون فخارى ؟ أم طائر عجيب بريشه الأحمر الزاهى ؟

وصلنا عندئذ للزورق . لقد قال القبطان أن عمى ثعلب ، فظننت أني وجدت صديقا طيبا .. وهكذا ركبت الزورق مع هوسيسون ، وتبعنا العم ابنيزر ، ورانسوم .

شد البحارة المجاديف بقـوة ، وفى الحال تحرك الزورق فوق الماء .

كانت رحلة قصيرة ممتعة .. كل شيء جديد على ، وأخذت أنظر من خلفى الى الشاطىء ومن أمامى نحـــو الكوفينانت .. فتبدو السفينة كل دقيقة أكبر وأكبر حتى وصلناها .

قال القبطان بأننى وهو سنكون أول من يصـــعد السـفينة ، وألقى بعض الرجال بحبـــل على جانبها ورفعونى به الى ظهرها .. لف القبطان ذراعه من تحت ذراعى بسرعة ، ووقفت لبرهة وجيزة ، فتمايل المركب جعلنى أصاب بدوار .

أخذ القبطان يشير الى أجزاء السفينة ويخبرنى بأسمائها ، واستخداماتها . كنت سعيدا جدا لأرى كل هذه الأشياء .

ـ لكن أين عمى ؟

قلت ذلك بصورة فجائية ، فقال هوسيسون :

ـ نعم ، أين هو ؟

عندئذ لم يكن صوته صوت صديق ، فانفلت من ذراعه وركضت الى جانب السفينة . كان الزورق يتحرك فى تجاه البلدة وعمى فيه ..

فصرخت :

ـ النجدة ! النجدة !

واستدار عمى ، وكان وجهه قاسيا . لم أر أكثر من ذلك ، لأن سواعد قوية سحبتنى بشدة ، شعرت بعدها بضربة شديدة على مؤخرة رأسى ، ثم رأيت وميض نار قوية ، فقدت على أثرها الوعى .

الفصل التاسع

ذهابى الى البحر

كنت فى مكان مظلم عندما عدت الى الوعى ، مقيد اليدين والقدمين . وسمعت ضوضاء عالية من : لطمات الماء ، وزمجرة الريح فى الأشرعة ، وصرخات البحارة .. والعالم كله يعلو ويهبط . كنت أشعر بدوار وبغثيان وبأن ذهنى ليس صافيا . وفى البداية لم أكن أستطيع ادراك أى شىء ، ثم بدأت أدرك بالتدريج .

نعم ، انى راقد فى مكان ما داخل الكوفينانت ، السفينة الرهيبة ، والعاصفة تهب من حولها .

لقد رأيت الخطر يحيط بحيـــاتى ، وكنت أشعر بالعار والغضب .. تركت عمى يخدعنى مرة أخرى ،

وتركت القبطان يخطفنى .. وهأنذا سجينا ، هجرته كل الآمال ! .

ما هى طول المدة التى رقدت فيها داخل المكان المظلم ؟ لا أستطيع التخمين . فالنهار والليل سيان . كانت هناك رائحة خبيثة ، وأحيانا تجرى الفئران من فوق وجهى . ماذا كان يحدث ؟ هل السفينة تتحطم على صخرة من الصخور ؟ أم أنهـــا تغرق الى قاع البحر ؟ وزارنى النوم أخيرا ، رأيت فيه أحلاما فظيعة .

سلط ضوء على وجهى فاستيقظت ، فرأيت رجلا ضئيلا يلقى نظرة على . كان له شعر أشقر وكانت عيناه خضراوين .

وقال :

ــ حسن ، كيف حالك ؟

لم أقدر على الاجابة لضعفى . تفحص الرجل رأسى وغسل الجرح الذى به ،

وقال :

ــ انه جرح سىء . ابتهج يارجل ! فالحياة لم تنته

بعد . هل تناولت أى طعام ؟ .

فأخبرته بأننى لا أستطيع الأكل ، فأعطانى بعض الماء وخرج .

وعندما عاد مرة ثانية ، كنت بين النائم واليقظ .

لم أكن مريضا ، وانما مصاب بدوار شديد ، وكل جزء من جسمى يؤلمنى . وكانت الحبـــال التى حول يدى وقدمى حارقة كالنار ، وكنت أخاف الفئران الموجودة دائما .

كنت سعيدا عندما رأيت الضوء . نزل الرجل ذو العيون الخضراء على السلم الحديدى ثم تبعه القبطان .. لم يتكلما ، فحصنى الرجل ، ونظف جرحى ثانية ، وهوسيسون يراقب ويرمينى بنظرة قاتمة فاترة .

وقال الرجل الضئيل :

ـ والآن يا سيدى ، يمكنك أن ترى .. حمى شديدة .. لا ضوء ولا طعام .. أنت تدرك معنى ذلك .

فأجاب القبطان :

ـ لا أدرك ما تعنيه يا مستر رياتش .

فقال رياتش :

ـ دعنى أتكلم يا سيدى ، يجب أن يخرج الولد من هذه الحفرة . ضعه فى السلوقية (*) .

فقال القبطان :

ـ انه هنا ، وسيظل هنا .

فقال الآخر :

ـ أعرف انك حصلت على مال من أجل هذا العمل ، وتذكر من فضلك ، أننى لم أحصل على شىء . اننى الضابط الثانى على هذه السفينة القديمة . وتدفع لى أجرا مقابل ذلك ، لا مقابل أى شىء آخر .

فقال القبطان بحدة :

ـ ولكنك تحب شرب البراندى جدا .. لدينا عمل على السفينة .

ووضع قدمه على السلم الحديدى ، ولكن مستر رياتش أمسك بذراع سترته **وبدأ يتكلم :**

(*) جزء من مقدم السفينة يبيت فيه البحارة .

ـ لقد أخذت مالا مقابل جريمة قتل ·

فالتفت هوسيسون وصرخ :

ـ ماذا ؟ ماذا ؟ لقد أبحرت معك ثلاث مرات · انك تعرفنى · اننى رجل صارم ، لكننى لا أقتل ·· أنت تقول ان الولد سيموت ؟

فقال مستر رياتش :

ـ نعم ، سوف يموت ·

فأجاب هوسيسون :

ـ حسن يا سيدى ، خذه الى السلوقية ·

وصعد السلم الحديدى ، وفك مستر رياتش الحبال من يدى وقدمى ، ورفعنى بحـــار على ظهره وحملنى صاعدا بى الى السلوقية ، وأرقدنى فى مرقد ، ثم فقدت الوعى مرة أخرى ··

فتحت عينى أخيرا ·· كانت السلوقية عبارة عن مكان فسيح فى مقدمة السفينة ، تحت ظهر السفينة الرئيسى · وكان يرقد عديد من البحارة فى مراقدهم ، بعضهم يدخن ، وبعضهم يستريح ، وبعضهم ينـــام

كان النهار هادئا ، وكانت الكوة (*) مفتوحة . كنت سعيدا بوجود النور والهواء . وعندما تحركت ، أحضر لى بحار دواء ، وقال لى أن مستر رياتش أعده لى .

رقدت هناك عدة أيام حتى استرجعت صحتى . وكان رفاقى غلاظا سيئين ، فحياتهم جعلت قلوبهم قاسية ، ولكنهم كانوا كرماء معى أحيانا . فلقد أخذ القبطان كل نقودى ، واقتسمها معهم ، فأعادوا هم بعضها لى .

كنت فى حاجة لعمال ليساعدونى فى أمريكا ، التى أرسلنى عمى اليها لأكون عبدا فى الحقول .

كان رانسوم يأتى أحيانا ويكشف لى عن آثار ضرب كثيرة فى جسمه ، كان مستر شوان يضربه دائما .. ويقولون أنه أفضل بحار على ظهر السفينة .

شيء غريب حقا ، فمستر شوان كان رجلا طيبا عندما لا يشرب ، ومستر رياتش كان طيبا فقط عندما

(*) فتحة ذات غطاء فى سطح السفينة .

يشرب ، ولم يكن يقترب منى عندمـــا يكون فائقا من الشرب •

استمرت العاصفة والبحارة يقـــومون بســـحب الأشرعة ، أو بفتحها • ان عملهم صعب • أما الكوة التى فى السلوقيـة ، فلم تعد تفتح مطلقـا وأصبحت سجينا هناك والأيام تمر ببطء •

وجاء فى أحد الأيام مســـتر رياتش ، فأخبرته بقصتى ،

فقال :

ــ سأساعدك اذا استطعت ، سأحضر لك قلما وورقا وحبرا •• يمكنك أن تكتب لمستر كامبل ومستر رانكيلور ، وتحلى بالشجاعة •

قال لى أنه كان ابن لورد ، وكان على وشك أن يصبح طبيبا ، لكنه لم يوفق فى امتحاناته • وبدلا من ذلك اشتغل بالبحر ، وسألته عن السبب ، فقال أنه يحب اللهو •

الفصل العاشر

القمرة ★

نزل أحد البحارة فى ليلة من الليالى حوالى الساعة الحادية عشرة الى السلوقية ليأخذ سترته ·

وهمس :

ـ لقد أجهز شوان عليه أخيرا ·

عرفنا كلنا معنى ذلك · وفتحت الكوة ثانية ، وهبط القبطان هوسيسون السلم ، وألقى بنظرة حادة حول المراقد ، ثم جاء الى **وقال بصوت رقيق :**

(★) حجرة فى القسم الخلفى من سطح السفينة ·

ـ اننا نريدك فى القمرة ، ستقوم بالخدمة هناك ، ستتبادلان الأماكن أنت ورانسوم ·

وظهر بحاران فى الكوة ·· كانا يحملان رانسوم فى أذرعهم ·· سقط الضوء على وجه غلام السفينة ، فبدا شاحبا ، وعلى شفتيه ابتسامة رهيبة · كنت خائفا ، فشهقت وسحبت نفسى بحدة · وعندئذ صاح القبطان :

ـ هيا الى مركزك الجديد !

فجريت بسرعة ، صاعدا السلم الى السطح ·

مازال البحر هائجا والسفينة تتمايل ، واستطعت رؤية غروب الشمس من خلال شراع على الجهة اليسرى ·· أدهشنى ذلك لأننا كنا فى ساعة متأخرة من الليل · ثم عرفت أننا نبحر شمالا حول اسكتلندا ·

كنا فى عرض البحر بين جزر الاوركنى وجزر شتلند ، والريح ضدنا ، ولما مكثت طويلا فى الظلام ظننت أننا أصبحنا قرب أمريكا ·

ونسيت فى الحال موضوع غروب الشمس عندما انزلقت قدمى بسبب ابتلال سطح السفينة ، وتساندت على الحبال ، وعبرت ببطء الى القمرة ٠

تبرز القمرة ست أقـدام فـوق ظهر السفينة ٠ وينام ويعيش فيها القبطان مع الضابطين ، وهى مليئة بخزانات تحوى أغراض الضباط ، وذخيرة السفينة ٠ ومعلقة على أحد الجدران جميع بنادق السفينة وبعض سيوفها ، حيث كانت أكثر السيوف فى مكان آخر من السفينة ٠ ويضىء القمرة بالنهار النافذة الصغيرة والمنور القابع فى السطح ، أما بعد حلول الظلام ، فكان هناك مصباح يضىء دائما ٠

دخلت ٠٠ وكان مستر شوان يجلس على المائدة ، ومعه زجاجة براندى ، وكأس صغيرة ٠٠ كان رجلا طويلا قويا داكن اللون ، ولم يلحظ دخولى ، ثم دخل بعدى القبطان ، ووقفت تحت المنور ، ولم يحرك مستر شوان ساكنا ، وراقبه هوسيسون بوجه عبوس ٠٠ وبعد قليل دخل مستر رياتش وألقى الى القبطان نظرة متحفظة ٠



صرخ فى مستر شوان « اجلس » !

كانت النظرة تعنى : « مات الغلام » .. ثم ثبت عينيه على مستر شوان .. وفجأة مد مستر شوان يده ليأخذ الزجاجة ، فتحرك مستر رياتش للأمام وسحبها بعيدا ، وألقى بالزجاجة فى الماء .

قفز مستر شوان واقفـــا ، متأهبا لجريمة قتل أخرى ، وتدخـــل القبطـــان بسرعة بين الرجلين ، **وصرخ فى مستر شوان :**

— اجلس ! ماذا فعلت ؟ هل تدرى انك قتلت الغلام .

جلس مستر شوان ، ووضع يده على رأســه ، **وقال :**

— حسن ، لقد أحضر لى كأسا قذرة .

اندهشنا جميعا ، بل وخفنا عند سماع هـــذه الكلمات . هل كان مخبولا ؟

ومشى القبطان الى رئيس الضـــباط وقاده الى مرقده ، وأمره بالرقاد ..

وخلع مستر شوان حذاءه البحرى بهدوء وأطاع •

وقال مستر رياتش للقبطان :

ـ آه ، لماذا لم تتدخل من قبل ؟ لقد فات الأوان الآن •

فقال القبطان :

ـ مستر رياتش ، يجب أن لا يعلم أحد بما حدث الليلة • سنقول ان الغلام سقط فى البحر •

وأرسلنى لأحضر زجاجة براندى أخرى ، وجلس الرجلان يشربان •

كانت تلك هى الليلة الأولى لواجباتى الجديدة • اعتدت على العمل بسرعة : وهو عبارة عن تقديم وجبات الأكل في ساعات معينة • وكان الطعام بسيطا •• عصيدة أو لحما مقددا • كنت لا زلت ضعيفا ، لدرجة أن الأطباق كانت تقع منى أحيانا •• ولم يشك القبطان ولا مستر رياتش منى ولم يعاقبانى ، أعتقد أنهما لم يستطيعا نسيان رانسوم •• أما مستر شوان فلم

يتعود على مطلقا • لم يكن عقله صافيا أبدا ، ونسى فورا مقتل رانسوم •

ونسى فورا مقتل رانسوم •

وفى أحد الأيام وهو معى فى القمرة بمفرده ، حدق فى مدة طويلة ، حتى أننى خفت ، ثم سأل :

ـ أنت لم تكن هنا من قبل ؟

قلت :

ـ لا ، يا سيدى •

فسأل مرة ثانية :

ـ كان يوجد غلام آخر ؟

قلت :

ـ نعم •

فقال :

ـ أظن هذا •

وجلس وطلب براندى •

لم تكن حياتي صعبة · كنت آكل جيدا ، وأركض طوال اليـوم بالمشروبات للضـباط ، وأنام في المساء على الأرض ، التي كانت فراشـا جامدا باردا ·· ولم أستطع نسيان رانسوم بالاضافة الى مشاكلي الخاصة ·

عملت خادما لهؤلاء الرجال الثلاثة · واحد قتل غلاما والآخران لا أحترمهما ، وقريبا سأدخل في حياة الرقيق · ولم يسمح لي مستر رياتش أن أحدثه عن قصتي مرة ثانية · وعنـدما حدثت القبطان فيهـا طردني ·

ومرت الأيام ، وماتت آمالي ·

الفصل الحادى عشر

الرجل ذو الحزام المملوء بالذهب

استمرت العاصفة لعدة أيام .. نبحر مسافة قصيرة أحيانا ، فتضربنا الريح للخلف . وفى اليوم التاسع وصلنا شمال غرب اسكتلندا ، وكنا غير بعيدين عن اليابسة . كان الساحل وعرا ، والصخور ظاهرة فى كل مكان ، توحى بالخطر .

عقد الضباط مناقشة ، اتجهت السفينة بعدها جنوبا لتسير مع الريح . وهدأ البحر فى اليوم التالى بعض الشىء ، لكن الضباب الأبيض الكثيف كان يخفى كل شىء ويعدم الرؤية .

سجى الليل ، وعندما كنت أقدم وجبة الغشاء للقبطان ومستر رياتش ، ارتطمت السفينة بشيء ما محدثة اصطداما شديدا ، ثم سمعنا أصوات صراخ ،

وصاح مستر رياتش :

ـ لقد ضربنا صخرة :

فقال هوسيسون :

ـ كلا يا سيدى ، لقد صدمنا زورقا ٠

كان على صواب ، لقد ضربنا زورقا صغيرا فى الضباب انكسر نصفين وغرق ، وفقد جميع من فيه أرواحهم ، ما عدا رجلا واحدا ، كان يجلس على مسافة من الآخرين ٠ وعندما وقعت الواقعة ، قذفت الضربة به الى الهواء ، فقفز فى البحر بمعطفه الطويل !

وأمسك الرجل بقائم السفينة الخشبى الذى يمسك الأشرعة ، بالمقدمة ، ونجا ٠٠ معنى ذلك أنه كان سريع الحركة وقويا ومحظوظا ، ومع ذلك كان هادئا تماما عندما أحضره القبطان الى القمرة ٠

كان جسمه دقيقا متناسقا ، خفيف الحركة ، وله وجه صادق ، وعينان رشـــيقتان ·· خلع معطفه ·· ووضـــع مسدسين جميلين على المائدة ، ولهما قبضتان من الفضة ، وكان يتدلى من حزامه سيف كبير ·

كان مؤدبا جدا تجاه القبطان ، وقبل دعوته الى الشراب ·· انه من النوع الذى يصلح صديقا طيبا ·· وعدوا رهيبا فى الوقت نفسه ·

تفحص القبطـان ملابس الغريب ·· كانت لديه قبعة ذات ريش ، وصدرية حمراء ، وبنطلون أسود من قماش فخم ، ويرتدى معطفا أزرق قصيرا له أزرار فضية **وقال له القبطان :**

– آسف يا سيدى ، بخصوص الزورق ·

قال الغريب :

– لقد فقدت فيه بعض الأصدقاء الطيبين ·

قال هوسيسون :

– لقد كنت فى فرنسا ، يا ســـيدى ·· انك

ترتدى ملابس فرنسية ·· أنت تفهم ما أعنيه ·

فقال الغريب :

ـ آه !

ووضع يده بسرعة على سيفه ومسدساته ·

وعندئذ قال القبطان :

ـ انتظر لحظة · اننى لست « جيمسى » (*) ، حقا ، لكننى أشفق على رجل فى محنتك ·

قال الجيمسى :

ـ حسن يا سـيدى ، اننى جنتلمان شريف ، حاربت لأجل ملوك الستيوارت (١) ، وكنت فى فرنسا

(*) الجيمسى ، الستيوارتى : تسميات لأنصار جيمس الثانى ملك انجلترا أو آل ستيوارت بعد ثورة ١٦٨٨ ·

(١) كان ملوك الستيوارت من أصل اسكتلندى · ولم يكونوا محبوبين ، فانتقل الحكم الى عائلة ملكية أخرى · وحارب بعض الناس (الجيمسيون أو الستيوارتيون) لاعادة آل ستيوارت ، ولكنهم فشلوا ·

•• وذوو المعاطف الحمراء (١) ليسوا أصدقاء لى • كان المفروض أن تقابلنى هنا سفينة فرنسية ، لكنها فقدت طريقها فى الضباب • واذا أخذتنى الى فرنسا ، فسأجزل لك العطاء •

– لا يا سيدى ، لا أستطيع أن آخذك الى فرنسا ، لكنى أستطيع أن أنزلك فى مكان ما هنا •

عندئذ لاحظنى هوسيسون واقفا فى ركنى ، فأرسلنى لأحضر وجبة طعام للجنتلمان •

وعندما عدت رأيت الجيمسى يخلع حزام نقوده ، ووضع بضعة جنيهات منه فوق المائدة • ونظر القبطان الى الذهب والحزام بعيون شرهة •

وقال :

– أعطنى نصفها وسأوافق •

أعاد الآخر النقود الى الحزام مرة ثانية ثم لبسه ،

وقال :

---

(٢) الجنود الانجليز •

ـ انها ليست نقودى يا سـيدى ، فهى تخص رئيسى .. سأدفع لك ستين جنيها فقط لانزالى عنـد بحيرة لينه .

فسال هوسيسون :

ـ واذا سلمتك للجنود ؟

فاجاب الغريب :

ـ اذا سلمتني لذوى المعاطف الحمراء ، فستأخذ الحكومة النقود ، ولن تحصل أنت على شيء .

قال القبطان :

ـ حقا يا سيدى ، واذا لم أخبرهم عنهـا .. يمكنني الاحتفاظ بها .

صاح الجنتلمان :

ـ اذا لم تخبرهم يا سيدى ، فسأقوم أنا بذلك .

قال القبطان :

ـ حسـن اذن .. أوافق .. سأنزلك مقابل ستين جنيها فقط . وتصافح الرجلان ، وغادر القبطان القمرة .

الفصل الثاني عشر

انضمامي للغريب

أخذت أنظر للغريب باهتمام ٠٠ لم أر « جيمسى » من قبل ٠٠ كان معظم هؤلاء الرجال ثوارا من هايلاند ٠ قاموا بالحرب ضد الملك جورج وحكومته ٠٠ والآن أصبحت حياتهم غير آمنة فى أسكتلندا ٠ فالتحق بعضهم بجيش ملك فرنسا ٠ ويرجع هؤلاء الثوار أحيانا الى هايلاند ، ليجمعوا المال لرؤسائهم ٠ أتيت بالطعام أمامه وقلت :

ـ انت جيمسى ، أليس كذلك ؟

قال :

ـ بلى ، أنا كذلك .. وأنت ـ بوجهك الطويل ـ هويجى (*) ؟

أنا فى الحقيقة هويجى أيضا ، ومخلص للملك جورج ، لكنى كنت أخشى المشاجرة مع هذا الرجل ، لذلك أجبت :

ـ نصف نصف .

قال :

ـ حسن ، يا مستر نصف نصف ، هذه الزجاجة ، فارغة .

قلت :

ـ سأذهب للبحث عن المفتاح .. وخرجت الى السطح .

كان الضباب لا يزال كثيفا ، فلم أستطع أن أرى

(★) عضو فى حزب انجليزى مؤيد للاصلاح ، عرف فيما بعد بحزب الأحرار .

أى انسان ، لكنى سمعت أصـواتا ·· كان القبطان والضابطان يتهامسون ·· **وقال مستر رياتش مستفسرا:**

ــ هل يمكن أن نخرجه من القمرة ؟

قال القبطان :

ــ كلا ، دعه يبقى هنـاك ·· فلن يســـتطيع استخدام سيفه فى ذلك الحيز الضيق ·

ــ نعم ، لكن كيف نقبض عليه ؟

قال هوسيسون :

ــ أوه ، نبـدأ حوارا معه ، ثم نسـتولى على أسلحته ونسجنه ·· يمكننا أن نهجم عليه من البابين ونفاجئه ·

لقد ملئت بالخوف عندما سمعت هؤلاء الأشرار الوحوش ·· ألم يتعهد القبطـان للغريب من قليل ؟ والآن يخطط لهذه الخـــدعة القذرة ! ماذا عساى أن أعمل ؟ أهرب ؟ لا ·· تحركت للأمام ··

وقلت :

ــ أيها القبطان ، يريد الجنتلمان شرابا ·· هل لى أن آخذ المفتاح ؟

فصاح رياتش :

ــ هــذه فرصــتنا ! ديفيد ·· يحصـــل على المسدسات ·

قال القبطان :

ــ نعم ، هـــذا الهايلاندى المتوحش خطر على السفينة يا ديفيد · انه عدو للملك جورج ·· ونحتاج لبنادقنا وذخيرتنا من القمرة · اذا أحضرت لنا بعضها بهدوء سأساعدك فى أمريكا ·· ستحتاج الى صديق هناك ·· وسنعطيك بعض نقود هذا الهايلاندى الكثيرة·

اعطانى المفتاح ورجعت ببطء الى القمرة · مــاذا أفعل ؟ ·· كانوا كلابا ولصوصا ·· لقد سرقونى فى بلدى ·· قتلوا رانسوم المسكين ·· أيجب أن أساعد فى جريمة قتل أخرى ؟!

لكن ماذا يمكن لصبى ورجل فقط أن يفعلا ضد البحارة كلهم ؟

كان الجيمسى يأكل وجبته تحت المصباح ·· نظرت اليه ، وعقدت العزم فجأة ·· فاقتربت منه ، ووضعت يدى على كتفه ·· وقلت :

ـ انهم قادمون ليقتلوك ·· لقد قتلوا غلاما من قبل ·· والآن دورك أنت ·

فقفز واقفا على قدميه ··

وقال :

ـ حسن ، انهم لم ينالونى بعد ·

ثم نظر الى مباشرة · وقال :

ـ هل ستقف بجانبى ؟

صحت :

ـ سأقف بجانبك ! اننى لست لصا ، ولن اقترف جريمة القتل ·· سأقف بجانبك ·

قال :

ـ حسن اذن ، ما اسمك ؟

اجبت :

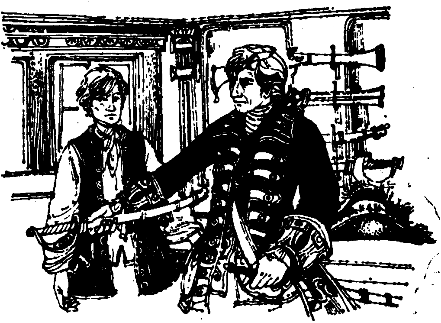
ـ ديفيد بالفور ثم أضـفت « من شوز » ٠٠ ظننت أنه كجنتلمان ذى ملابس رائعة ، سيحب علية القوم ، لكن ذلك لم يرضـه وقال وفى عينيه نظرة فخر :

ـ ان اسمى اسـم ستيوارتى ، ويدعوننى الن بريك ٠٠ ليس لدى أراض ملكى ٠٠ لكننى أحمل اسم ملك ٠

واسـتدار بخفة ليتفحص الحجرة ٠ كان للقمرة بابان ، احدهما كان مفتوحا ، وذهبت مسرعا لأغلقه ٠

فقال الن :

ـ لا يا ديفيد ٠٠ اذا كان أحد البابين مفتوحا ، فسياتون منه ، وسأرى أعدائى أمامى ٠٠ هذا أفضل ٠٠



اعطـانى سيفا من السيوف المعلقة على الجـدار

وأعطانى سيفا من المعلقين على الجدار ، وقال أنه سيشحن المسدسين بالبارود ، ثم سحب سيفه الكبير ، ولوح به الى أعلى والى أسفل ··

وقال :

ـ الغرفة صغيرة جدا ·· يمكننى استخدام طرف السيف فقط للأسف · والآن أصغ الى ··

فقلت اننى مصغ ·· وأحسست بصدرى ضيقا ، وبفمى جافا ، وبقلبى يدق بصعوبة ·· خيل الى اننى سأموت ·

وسألنى :

ـ كم عدد الذين ضدنا ؟

عددت فى سرى ··

ثم قلت :

ـ خمسة عشر !

قال :

ـ حسن ، انهم يكفون ! ·· سأدافع عن الباب

المفتوح ، فلا تصوب فى هذا الاتجاه ، لأنك ستصيبنى ٠

قلت :

ـ الباب الآخر خلفك ٠

قال ألن :

ـ نعم ، عليك بمراقبته ٠ تسلق فوق المرقد بجوار النافذة ، وأطلق النار فورا اذا هاجموا هـذا الباب ٠

قلت :

ـ لا تنس المنور أيضا ٠٠ لا أستطيع أن أراقبه مع الباب ٠

فقال الن :

ـ صحيح ، لكن أليس لك أذنان فى رأسك ؟

قلت :

ـ طبعا ، سأسمع صوت كسر الزجاج ٠

فأردف الن قائلا :

ـ انك تستخدم عقلك الآن ٠٠ !

الفصل الثالث عشر

الهجوم على القمرة

أنهى ألن كلماته تلك ، عندما ظهر وجه القبطان عند الباب المفتوح ·· لقد انتظرني مدة طويلة ، لذا كان غاضبا · **فصاح ألن موجها السيف نحوه :**

ـ قف !

وقف القبطان ساكنا ، لكنه لم يبد أى خوف ·

وقـــال :

ـ سيف ! هذا مقابل عجيب لترحيبى بك ·

فقال الن :

ـ ناد على رجالك واهجم يا سيدى .. فسأغمد هذا السيف فى جسدك . لقد قتلت به هويجيون من قبل .

لم يقل القبطان شيئا لألن ، لكنه رمانى بنظرة مروعة .

وقال :

ـ ديفيد ، سأذكر لك هذا .

جمد صوته دمى وفى اللحظة التالية لذهابه .

قال الن :

ـ والآن استعد .. فالمعركة ستبدأ حالا .

وأمسك بخنجر هايلاندى فى يده اليسرى وبسيفه فى يده اليمنى تسلقت فوق المرقد ومعى بعض المسدسات .. وفتحت النافذة الصغيرة وأخذت أراقب . كان قلبى ثقيلا ، وليس لدى أى أمل ..

وفكرت :

ـ قبل الصباح ، سأكون فى تعداد الأموات ، لكن قبل ذلك سأحارب من أجل حياتى · ودعوت الله ، وانتظرت ··

سمعنا صـــوت صـلصلة الصـلب فـوق ظهر السفينة ، انهم يعطون البحارة سيوفهم ، ثم عاد السكون مرة أخرى ·

وفجأة سمعنا صوت أقدام ، وصيحة ، وضربات ، وشخصا يصرخ ·· ونظرت من فوق كتفى ، فرأيت الن ومستر شوان يتحاربان عند الباب المفتوح ··

فصرخت :

ـ هذا هو الرجل الذى قتل الغلام !

فأجاب الن وهو يمرر سيفه عبر جسد الضابط :

ـ راقب نافذتك !

عندما أدرت رأسى نحو نافذتى ·· ركض خمسة رجال يحملون قطعة خشب ثقيلة ضخمة ، وضربوا بها

الباب الذى بجانبى ·· لم أطلق مسدسا فى حياتى ·· ولم أستخدم بندقية مطلقا ضد انســان ، والآن ، على أن أقوم بذلك ··

وصرخت :

ـ خذوا هذه !!

وأطلقت النار فى وسطهم ، أطلق أحدهم بعدها صرخة ·· لقد أصبته ، وتوقف الباقون · ثم أطلقت النار مرتين ·· فأسقط الرجـال الخشـبة وركضوا بعيدا ·· نظرت مرة أخرى نحو الن ، فوجدت الدم يسيل من سيفه ، ويرقد أمامه مستر شوان على الأرض بوجهه الشاحب ، ثم سحبه بعض البحارة الى الخارج ، ومات عندما أخذوا يحركونه ·

وسال الن :

ـ هل أصبت أحدا ؟

فأخبرته بأنى أصبت أحدهم فى ذراعه ، وأعتقد أنه القبطان ، فقال :

ـ لقد قتلت اثنين .. لا يكفى .. سيعودون ثانية .. راقب النافذة يا ديفيد !

شحنت مسدساتى ثانيــة وأنا أسمع مجادلة أعدائنــا فى الظلام ، ثم سمعت صــوتا يعطى بعض الأوامر ، وانتظرنا ..

لم تكن العملية سهلة ، وليس لدى وقت للخوف أثناء القتال . أذكر الآن بكل فزع السيوف الحادة ، والصلب البارد .

سمعت خطوات هادئة تقترب فى الظلام ، وسمعت أجساد البحارة تلامس جدار القمرة ، وشخصا يتحرك على السطح من فوقى ، ثم انطلق نـــداء ، واندفعت مجموعة من البحارة بغتة نحو باب ألن ، وفى هــذه الأثناء تكسر زجاج المنور الى قطع صغيرة ، وقفز رجل من خلالــه على الأرض ، فدفعت بمسدسى فى ظهــره ، ولم أطلق عليه النار فى البداية حيث لم أجد الجرأة لفعل ذلك ، واستدار بسرعة وهو يلعن ، وانقض على ، فأطلقت صرخة مدوية وأطلقت النـــار على جسده ثم

شعرت بقدم على رأسى · وكان رجلا ثانيــا آتيا من المنور ، فقبضت على مسدس آخر وأطلقت النار على ساقه ، فسقط فوق رفيقه ·· وأخـذت أنظر اليهما برعب ·

سمعت ألن يصرخ ، فعدت الى صوابى ·· كان أحد البحارة قد أمسكه وطوق جسمه ، وأخذ ألن يهوى عليه بخنجره · ورأيت رجلا ضخما رافعا سيفه كما رأيت كثيرين غيره عند الباب ، فظننت أننـا خسرنا المعركة !

أمسكت بسيفى وهاجمتهم من الخلف ، فسقط الرجل الأول الى الأرض ثم قفز ألن متراجعا واندفع نحو الآخرين ، فاستداروا وركضوا هاربين ·· وأخذ سيف ألن يبرق فى يده المرة تلو الاخرى ، وفى كل مرة كان يصيب رجلا ·

وفجأة ذهبوا جميعهم · كان ألن يسوقهم كالأغنام على طول السطح ، وسمعناهم يسقطون فى السلوقية ، ويغلقون الكوة من فوقهم ·· وانتهت المعركة !

الفصل الرابع عشر

أغنية ألن

عاد ألن بسرعة ٠٠ كان فى القمرة ثلاثة رجال قتلى ، وآخر عند الباب ٠٠ لقد هزمنا نحن الاثنين ٠٠ ألن وأنا العدو ٠٠ ولم نصب بسوء ٠ وجاءنى بذراعين مفتوحتين ٠٠ **قائلا :**

ـ ديفيـد ٠٠ اننى أحبـك كأخ لى ٠٠ وآه ! يا رجل ٠٠ ألم أحارب جيدا ؟

واستدار ٠٠ ومرر سيفه عبر الأعداء الأربعة ٠٠ ثم دفع بأجسادهم خارج الباب ٠٠ وجلس على المائدة ، لكن سيفه مازال فى يده ٠

كان وجهه مشرقا .. وسعيدا .. وأخذ يدندن بألحان قصيرة ويتوقف ، ثم يبدأ مرة ثانية . حاول اللحن مرات عديدة .. كان يقوم بوضـــع أغنية كلمات ، وموسيقى .. كانت عن القتال .

وفى النهاية ، اختمر اللحن فى رأسه وشعشع بغنائه .. وأخـذ يغنى أغنية بصـوت مرتفع باللغة الغيلية (*) . أصبحت بعد ذلك أغنية غيلية مشهورة ، سمعتها مرات ومرات .

لا أستطيع ترجمة الشعر ، لكنى ترجمت الكلمات الى الانجليزية البسيطة :

هذه هى أغنية سيف ألن ..
الحداد صنعه ..
والنار صهرته ..
ويتألق الآن فى يد ألن بريك ..
كانت عيونهم كثيرة ونيرة ..

(★) لغة السلتين فى ايرلندة والمرتفعات الاسكتلندية .

بسرعة أتوا
أياد كثيرة وجهوها ..
والسيف كان بمفرده ..

مر الغزال البنى فوق التل ..
هم كثيرون ، والتل واحد ..

ذهب الغزال البنى للأبد ..
والتل بقى ..

تعالى يا نسور من التلال ..
من جزر البحر ..

أيتها النسور الشامخة ، انظرى ..
ها هنا طعامك .. !!

لم تكن أغنية ألن عادلة تماما ازائى ، لأنه لم يكن بمفرده ، فلقد قتلت رجلين ، وجرحت القبطان ، ولكن الشعر ليس سهلا ، فربما الكلمات لا تتطابق . وأخذ فيما بعد يمدحنى لمساعدتى الكريمة .

لم أفهم الكلمات عندما كان يغنيها ، فلم أكن أعرف أى كلمة من اللغة الغيلية ، ولم تكن تهمنى ..

وبعد الانتظار الطويل والمعركتين العنيفتين كنت متعبا ، فسقطت على المقعد ، أحس بصدرى ضيقا وتنفسى بطيئا ، وكلما تذكرت اننى أطلقت النار على رجلين كنت أصاب بالغثيان ..

وفجاة صرخت كالطفل !

لمس ألن كتفى ، وقال أننى كنت ولدا شجاعا .. وكنت أنا فى حاجة الى النوم ..

فقال :

ــ ساقوم بالمراقبة أولا ، لقد أبليت بلاء حسنا يا ديفيد .. انك عزيز جدا عندى .

ورقدت ، وجلس ألن مع سيفه ومسدسه ، وبعد ثلاث ساعات أيقظنى وقمت بالمراقبة ..

لم يحدث أى شىء ، ولم يهجم البحارة مرة أخرى . وعندما جاء الصباح كان البحر هادئا ، لكن السماء كانت تمطر ، والطيور تصيح حول السفينة ، فعرفت أننا قريبون من الأرض .. وعندما نظرت من القمرة رأيتها .. رأيت تلال سكاى الحجرية الضخمة فى الجهة اليمنى ، وخلفها بقليل جزيرة روم الصغيرة العجيبة .. !

الفصل الخامس عشر

القبطان يعقد سلاما

تناولنا الافطار فى الساعة السادسة ، فلدينا فى مخـازن القمرة أفضـل الطعام والشراب بجميع أنواعه . كنا رفيقين طيبين .. وعندما كنا نأكل ، أخذ ألن سكينا من على المائدة ، وقطع أحد الأزرار الفضية من معطفه ..

وقال :

ـ احتفظ بهذا ، لتتذكر عملا آخر هذه الليلة . واذا أظهرت هذا الزر فى أى مكان ، فسوف يحيط بك أصدقاء ألن بريك .

كان يتكلم كملك .. لقد أعجبت بشـجاعته

جدا ، لكنه كان مختالا أيضا ، فأخفيت ابتسامتى ، لأننى لم أكن أرغب فى شجار . وبعد الأكل ، وجد ألن فرشاة تنظيف الملابس فى خزانة القبطان ، فخلع معطفه وأخذ ينظفه ، ثم أخذ ينظف بنطلونه من الآثار التى عليه .

كان مزهوا بملابسه الأنيقة ، ومع ذلك فلقد خلع زرا واتلف معطفه من أجلى .. وعندما فهمت ذلك .. أدركت قيمة هديته أكثر .

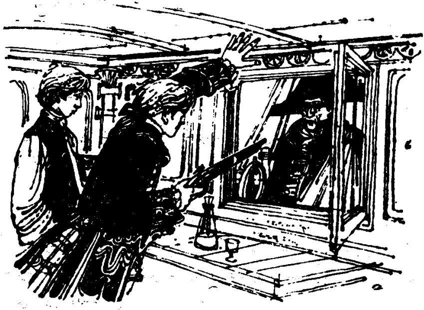
كان لا يزال ينظف ملابسه عندما ناداه مستر رياتش من السطح . تسـلقت عبر المنور ، ونظرت اليه ، لم يكن مجروحا .. مجرد خـدش صـغير على وجهه ، ولا أعتقد أنه حارب كثيرا . وكان متعبا لأنه قام بتحريض الرجال أثناء الليل ..

وقال :

ــ ان هذا القتال شئ سيء .

فاجبت :

ــ لم تكن غلطتنا .



صوب آلن مسدسه نحو وجهه

قال :

ـ هل يستطيع القبطان أن يكلم صديقك ؟

فسألت :

ـ أهى خدعة أخرى ٠

فأجاب :

ـ لا يا ديفيــد ، فالبحارة لن يحاربوا الآن ، ليس لديهم الشجاعة ، ولن أحارب أنا أيضا ٠

أعطيت الرسالة لألن فوافق ٠٠ ثم ذكرنى مستر رياتش بأنه كان كريما معى ، وطلب متوسلا شرابا ، فأعطيته كأسا من البراندى ، فشرب بعضها ، وأخذ الباقى الى السطح ٠

جاء القبطان للنافذة ووقف هناك تحت المطر بوجه شاحب عجوز ، لم يكن يقدر على اســتخدام احدى ذراعيه ، فصوب ألن مسدسه نحو وجهه ٠٠

فقال القبطان :

ــ ارفع هذا الشيء ! ألم أعطك وعدى يا سيدى ؟ هل أنت تهينني ؟

فقالت الن :

ــ يا قبطان ، لقد أعطيتني وعدا في الليلة الماضية ، فماذا حدث ؟

فقال هوسيسون :

ــ لقد اتلفت سفينتي ، وليس لدى رجال كافون من أجل الرحلة حاليا . كما استقبل ضابطي الأول سيفك عبر جسده . يجب أن اذهب الى ميناء لأحصل على بحارة أكثر . وهناك سيتكلم معك أحد من الحكومة .

فقال الن :

ــ أوه : سأتكلم أنا أيضا .. لدى قصة طيبة .. خمسة عشر رجلا في جانب ورجل وغلام في جانب آخر .. انه لعار ! سيسخر منك الناس .

فاحمر وجه هوسيسون ··

ثم أردف الن قائلا :

ـ كلا ، عليك أن تنزلنى عند بحيرة لينه !

فقال هوسيسون :

ـ لقد مات ضابطى الأول ، ولا أحد منا يعرف هذا الساحل ، وليس لدى خريطة ·· نحن لا نبحر عادة فى هذا الطريق ·· كنا ذاهبين غربا لأمريكا ، لكن الريح جعلتنا ننحرف جنوبا · من سيقود السفينة ؟

قال الن :

ـ حسن جدا ، انزلنى فى أى مكان قرب بلدى هايلاند ·· لكن ليس بالقرب من آل كامبل ·· واذا لم تقدر على ذلك فأنت بحار سىء ·

فقال القبطان :

ـ سيكلفك هذا مالا يا سيدى ·

فاجاب الن :

ـ سأدفع لك ستين جنيها ، قلت ذلك من قبل !

قال القبطان :

ـ هناك خطر على السفينة ، وعلينا كلنا . هل تستطيع أن تقودنا ؟

أجاب ألن :

ـ اننى لست بحارا ، ولكننى سافرت كثيرا على طول هذا الساحل ، وأعرف القليل عنه .

قال هوسيسون :

ـ حسن جدا ، سأحاول ، لكن الريح تهب ، فاذا قابلنا سفينة من سفن الملك فقد يصعد الضباط للسفينة ، ولا تلومنى اذا فعلوا ذلك .

أجاب ألن :

ـ اذا رأيت سفينة ملكية فعليك أن تهرب . والآن أقدم لك زجاجة براندى ونعطيها لكم مقابل جردلين من الماء !

ووافق القبطان .. حصلنا على الماء فغسلنا الدم والزجاج ، وحصل القبطان ومستر رياتش على شرابهما .

الفصل السادس عشر

الستيوارتيون والكامبليون

هبت الريح وأبحرنا ناشدين موطن ألن ·· وأشرقت الشمس فى الصباح ومررنا بجزر كثيرة ·· وجلسنا أنا وألن فى القمرة جلسة استرخاء ·· ودخنا غليونا من تبغ القبطان الفاخر ·

وعندما أخبرته بقصة مشاكلى أنصت كصديق مخلص ، ولكن عندما تكلمت عن مستر كامبل ، القس ، غضب ·

فقلت :

ـ لماذا يا ألن ؟ لماذا لا تحب الكامبليين ·

فاجاب :

ـ حسن ، انت تعلـم ٠٠ فأنا ستيوارتى من أبين ٠٠ والكامبليون أعداؤنا منـذ سنين وكثيرا ما هاجمونا ، وسرقوا منا ، وأخذوا أراضينا ، لكن ليس بالسيف مطلقا ، ولا فى قتال عادل أبدا ٠

وصرخ بصوت مرتفع مضيفا :

ـ فقط بالخدع والكلمات المزيفة ، ويدعون انهم حصلوا عليها بالقانون ٠ وهم يكذبون ! عليهم اللعنة جميعا !

لم أصدق كل كلمة قالها ، لكنى لم أخبره ٠ كنت أعرف أن الهايلانديين دائمو القتال والعراك بين أنفسهم ٠

وقلت له :

ـ اخبرنى قصتك ٠

قال :

ـ كان أبى جنديا فى الحرس الاسود (*) ٠ كان

(★) فرقة من الجنـود من اسكتلندا مشـهورة فى الجيش الانجليزى ٠

مشهورا بفن السيف ، فعلمه لى · لم يقتصد أى مال مطلقا ، وبعد وفاته التحقت بذوى المعاطف الحمراء ·

قلت :

ـ ماذا : هل كنت فى الجيش الانجليزى ؟

قال ألن :

ـ نعم ، لكنى هربت وتحولت الى الجانب الهايلاندى ·

أعرف أن الهروب ضد القانون ، وأنه جرم فظيع لأى جندى ، لكن لم أقل ذلك ، لأنى لا أريد أن أتشاجر مع صديقى ·

قلت :

ـ لكن يا ألن ، عقاب الهارب هو الموت ·

قال :

ـ نعم ، فأنا خارج عن القانون ، واذا أسرونى فسيشنقوننى ·

فصرخت :

ـ يا للهول · أنت هارب ، وثائر ، وخارج عن

القانون ، وخادم لملك فرنسا · لماذا رجعت لهذا البلد ؟
ــ حسن ، لقد افتقدت أصدقائى ، وبلدى ··
فرنسا مكان رائع ، لكنى افتقدت شجيرات الخلنج (*) .
والغزلان ·· كما لدى بعض الأعمال فى هايلاند ·
وأحيانا أحصل على بعض الشباب من هنا ليخدموا فى الجيش الفرنسى · لكن أهم شىء هى أعمال اردشيل ، فهو رئيس عشيرتى ·

واستمر قائلا :

ــ عندما هزم الانجليز جميع عشائر الهايلانديين، هرب اردشيل الى فرنسا ، واستولت الحكومة على جميع أراضيه فى أبين ، وطالبت المستأجرين بالايجارات · وقام الثعلب الأحمر ــ عليه اللعنة ــ بجباية المال للحكومة من المستأجرين ·

سألت :

ــ من هو الثعلب الأحمر ؟

(★) شجيرات تنمو فى كتل كثيفة ، لها أوراق صغيرة دائمة الخضرة ولها عناقيد من الزهور الصغيرة البنفسجية اللون ·

ـ انه كامبلى ·· رجل ذو شعر أحمر ·· آه ··
لو أستطيع أن أقتله !

كانت نظرته متوحشة وهو يبين عن أسنانه ··

ثم اضاف :

ـ أما رجال أبين ـ الستيوارتيون والماكوليون والمكروبيون فهم مساكين فقراء ، لكنهم يدفعون ايجارا ثانيا لرئيس عشيرتهم كل سنة · وأحمل أنا هذا المال اليه فى فرنسا ·

صرخت :

ـ ماذا ! يدفعون ايجارين ؟

ـ نعم يا ديفيد ، فجيمس ستيوارت يجمع المال فى هايلاند · انه قريبى وكان صديقا لأبى ·

فصحت :

ـ اعتقد ان هذا موقف نبيل ·· فأنا هويجى ومخلص للملك جورج لكنى معجب بهم ، فهم كرماء ·

فقال :

ـ نعم ، أنت هويجى ، لكنك جنتلمان ولست مثل الكامبليين ! ولا مثل الثعلب الأحمر ·

كان وجهه عابسا متجهما ··

ثم أردف قائلا :

ـ والآن ، سمع كولن كامبل بقصة المستأجرين وأنهم يدفعون ايجارا ثانيا لزعيمهم ، فأحضر الأوراق والمحامين وذوى المعاطف الحمراء · وجاء الى أبين ليطردهم من بيوتهم ·· سأصطاده فى يوم ما ، وأطلق عليه النار ·

قلت :

ـ ألن ، هذا ليس من الحكمة ، فأنت تتكلم دون جدوى · فكل هذه الكلمات الغاضبة لن تسبب أى أذى للثعلب الأحمر ·· أترك عقابه لله سبحانه ·

قال :

ـ آه ، طبعا ، فمدرسك كان كامبلى ·

أضفت :

ـ علاوة على ذلك ، اذا أتى هذا الكامبلى بالمحامين والجنود ، فهى أوامر الحكومة ، انها ليست غلطته ، واذا قتلته فسيحل محله رجل آخر .

قال الن :

ـ انك رائع فى القتال ، لكن فيك دم هوبجى .

كان صوته حنونا وفى نفس الوقت غاضبا ، ولم أزد عن الثعلب الأحمر كلمة أخرى ..

وسالت :

ـ كيف تأتى وتذهب كل مرة ؟ .. فهناك فرق للجنود فى هايلاند .

فاجاب :

ـ حسن ، فالجنود لا يمكن أن يوجدوا فى كل مكان ، واذا رأيت جنديا فى طريق ، أسلك طريقا آخر ، واختبىء فى شجيرات الخلنج ، أو فى بيت صديق .

علمت أشياء أخرى عن صــــديقى ٠٠ انه كان مشهورا فى هايلاند بموسيقاه وشعره ، وكان يقرأ الفرنسية والانجليزية ، كمـا أنه كان خبيرا بالسيف القصير والسيف الطويل ، كما هو خبير بالبندقية ٠ أما عيوبه فقد عرفتها من قبل فقد كان مزهوا بنفسه وبملابسه ، يتشاجر بسهولة ، وهو كالطفل ، وهذه أسوأ خصاله ٠ لكنه كان يتذكر المعركة التى دارت فى القمرة ، ولم يحنق على أبدا ، هل لأنه كان يحترم شجاعتى ؟ أم لأننى شاهدت أعماله الباسلة ؟ ٠٠ لا أعرف ، انه يحب الشجاعة فى أى شخص ، لكنه يعجب بها أيما اعجاب فى آلن بريك !

الفصل السابع عشر

السفينة تغرق

فى وقت متأخر فى المساء طل هوسيسون برأسه داخل باب القمرة ··

وقال :

ـ هيه ، تعال ·· انظر ما يحدث ·

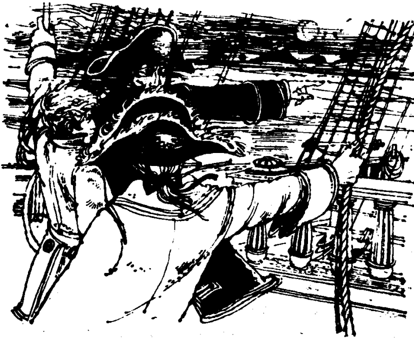
فسأل الن :

ـ هل هذه مكيدة أخرى ؟

صرخ القبطان :

ـ لا تضيع الوقت ! سفينتى فى خطر !

رأينـا أنـه جاد ، فخطوت أنا والن الى ظهر



اشار القبطان بجنوب الى صف من الصخور

السفينة ، كان الجو باردا والريح تهب بشدة . والقمر بدرا ، وكانت السفينة تبحر مسرعة تاركة الساحل الغربى لجزيرة مول ، وارتفعت فجأة فوق موجة عاتية .

أشار القبطان بجنون الى صف من الصخور يتكسر البحر فوقها الى أمواج بيضاء . وتظهر بعد مسافة قريبة صخور أكثر .

قال هوسيسون :

– اسمع ! اننى لم أكن أعلم بأمر هذه الصخور ، هل منها الكثير ؟

فاجاب الن :

– سيدى ، لست بحارا .. أعتقد يوجد عشرة أميال منها .

نظر القبطان الى مستر رياتش كما نظر مستر رياتش الى القبطان .. **الذى قال :**

– لو كان مستر شوان هنا ! كان سيعرف الطريق خلالها ، أليس كذلك ؟

فاجاب ألن :

ـ لست أدرى ، لكننى أتذكر شيئا · أنها أروق بالقرب من اليابسة ·

كان هناك ثلاثة بحارة فقط على السطح بجـانب الضباط ، فمعظم الآخرين كانوا مصابين ·

وأرســل القبطان مستر رياتش ليصـــعد بين الاشرعة ليتفحص الساحل ·

فصرخ بعد فترة قائلا :

ـ أنها أروق بجوار اليابسة ·

ثم قال هوسيسون لألن :

ـ حسن يا سيدى ، سنحاول طريقك ، وأدعو الله أن تكون على صواب ·

فقال ألن :

ـ انى أدعو الله ، لكننى لست متأكدا ·

أبحرنا تجاه الطرف الجنوبى الغربى لجزيرة مول ، ورأينا الصخور قابعة فى دربنا · وأحيانا كان مستر

رياتش ينادى على القبطان ٠٠ انحرفت السفينة بعد ذلك ومالت بجانبها بسرعة فى خطر مباغت ٠ كان وجه هوسيسون صارما صلبا كالصلب نفسه ، وهو واقف بجوار رجل الدفة ٠ لم يكن قد أظهر شجاعة كافية فى القتال ، لا هو ولا مستر رياتش ٠ أما الآن ، فأراهم شجعانا فى عملهم ، فاحترمتهم لذلك ، خاصـــة عندما رأيت وجه آلن الشاحب ٠٠ وهو يقول :

ــ أوه ، ديفيد هذه ليست موتتى !

قلت :

ــ ما بك يا آلن ، هل أنت خائف ؟

قال :

ــ لا ، لكنها ميتة باردة !

مازال البحر هائجا ، ونادى مستر رياتش مرة أخرى وقال بأنه يرى مياها صافية أمامنا ٠٠ فقال هوسيسون لألن :

ـ كنت على صـــواب • لقد أنقذت السفينة يا سيدى •

وفجأة صرخ مستر رياتش :

ـ صخرة عن يميننا •

وفى نفس اللحظة ، أسقطت الريح الأشرعة ، فاستدارت السفينة بشـــدة واصـــطدمت بالصخرة ، وسقطنا جميعا على ظهر السفينة •

وقفت على قدمى بعد لحظات • وبين لى ضـــوء القمر أن الصخرة كانت قريبة من جزيرة صغيرة •

تكسرت الأمواج فوق السفينة المسكينة وضربتها فى الصخرة ، فأخذت تتهشم الى قطع ، وامتلأت آذاننا بضوضاء الأشرعة ، وصوت الريح ، وصرخات الرجال المصابين فى السلوقية •

حـــاول مستر رياتش والبحارة رفع الزورق ، فركضت لمساعدتهم • ولم يتحرك القبطان ، كان ممسكا بالحبال الرئيسية ، ويصيح فى كل مرة ترتطم فيها

السفينة بالصخرة . فالكوفينانت له بمثـــابة الزوجة والولد . لقد ترك مســتر شـوان يفعل ما يفعل فى رانســوم ، لكنه لم يكن يحتمل البحر القـــاسى على السفينة . نظرت عبر الشاطىء ..

وسألت الن :

ــ ما هذه الأرض ؟

فأجاب :

ــ انهـــا أسوأ أرض بالنسبة لى .. أنها أرض الكامبليين !

لقـــد دفعنا الزورق الى جـــانب السفينة .. عندما صرخ بحار فجأة قائلا :

ــ توقفوا بحق السماء .

وجاءت موجة مهولة رفعت السفينة الى أعلى ثم قلبتها ، وقرعتنى فى البحر .

هبطت الى أسفل وشربت ماء كثيرا ، وعدت الى أعلى ثم هبطت ثانية . أخذت الأمواج تضربنى وترمينى من عل ، ثم غطتنى مرة أخرى ، وسحبتنى مسافة



خضت فى الماء

هائلة . وفى النهاية وجدت نفسى متعلقا فى شىء . انه قائم خشبى من أشرعة السفينة ، ثم طفوت فوق ماء هادىء .

وأصـــبحت بعيدا عن السفينة ، فصرخت ولم يسمعنى أحد .

كانت الجزيرة الصغيرة قريبة ، استطعت أن أرى الصخور وشجيرات الخلنج التى عليها . أردت أن أصل اليها ، ولكنى لم أكن أستطيع السباحة جيدا ، فتعلقت بالقائم الخشبى بكلتا ذراعى ، ورفست المـاء بقدمى . وهكذا أخذت أتحرك فوق الماء . كان عملا شاقا ، لكن بعد ساعة وصلت الى خليج صغير .

كان مكانا موحشـــا ، لكنى كنت ممتنا لله . ولاحظت ان المياه أقل عمقا هنا ، فبدأت أخوضها ميمما نحو الشاطىء .. !

الفصل الثامن عشر

الجزيرة الصغيرة

بدأ أسوأ جزء من مغامراتى عندما خضــت الى الشاطىء • أخذت أسير جيئة وذهابا على الرمال لأدفىء نفسى ، وكان الليل فى منتصفه •• ولا يوجد صوت لانسان أو لماشية •• هناك فقط صوت الأمواج وهى تتكسر على صخور الشاطىء ••

ولما جاء النهار ، تسلقت أقرب تل ، ونظرت من حولى • لم أر أى علامة للسفينة أو للزورق •• ترى أين رفاقى فى السفينة ؟ لا يوجد أى شراع فى المحيط ، ولا بناء ولا انســان على اليابســـة •• ملابسى مبتلة ومعدتى خاوية •• وبدأت أمشى على الساحل لأتفحص

المكان ، الى أن توقفت عند جدول ماء يجرى متوغلا فى اليابسة ، واستدرت ومشيت جهة الداخل متتبعا له • وبدلا من أن ينتهى ، اذا به يتسع أكثر ، وأكثر •• وفجأة فهمت أنه ليس بجدول ماء حقيقى •• انها جزيرة صغيرة خاوية ، والبحر المالح حولى من كل مكان •

لم أستطع الخوض عبر الجدول ، فالماء كان عميقا •• وفكرت فى الدعامة الخشبية التى استخدمتها فى وصولى لليابسة •• يمكنها أن تساعدنى مرة ثانية • مشيت راجعا عبر قمة الجزيرة الصغيرة ، ووصلت مرة أخرى للخليج الصغير ، لكن الدعامة لم تكن موجودة • لقد طفت وسحبها البحر ، ولا أستطيع الوصول اليها • وشعرت باليأس التام •

كان وقتا عصيبا ، لا أحب أن أتذكره • لم يكن معى فى جيوبى الا النقود وزر ألن • لقد عشت سنوات عمرى فى الريف ، وليس لدى أى خبرة بالجزر أو البحر • ماذا كان يمكننى عمله ؟

وجدت بعض القواقع ، وكنت جوعان جدا لدرجة

أننى أكلتها ، ولأنها نيئة جعلتنى أشـــعر بالغثيان فى الحال ، لكنى أكلت منها أكثر ، فلا يوجد شىء آخر . كانت السماء تمطر طوال النهار ، ولا يوجد ما أحتمى تحته .. وفى المساء رقدت بين الصخور ، وقدماى متدليتان فى الماء المالح .

وفى اليوم التالى ، عبرت الجزيرة مرة ثانية . كانت كلها عبارة عن صخرة واحدة ، وكانت الطيور تطير حولى ، لكن لم أستطع الامساك بأى منها ، فليس لدى بندقية . وأخذت أبحث عن ملتجأ أحتمى فيه ، فلم أجد غير طلل من الأطلال .. عبارة عن بناء صـــغير بلا سطح .

ونظرت فى الجهة المقابلة ، الى ساحل اسكتلندا ، فرأيت منازل وكنيسة قديمة كبيرة . أيجب أن أموت هنا وحيدا ، وبالقرب من بلدى ؟

كانت السمـــاء ما تزال تمطر ، وحلقى شـــديد الالتهاب ، فنمت مرة ثانية فى مكان مبتل .

وفى الصباح الثالث رأيت غزالا أحمر واقفا على

التل ، وعندما تحركت اختفى • كان قد سبح من الساحل الرئيسى ، وفى السماء شاهدت نسرا يطير عاليا • أما أنا •• فلا استطيع أن أنفذ فى الهواء أو فى الماء •

كنت أبحث عن مزيد من القواقع عندما سقطت عملة ذهبية على صخرة وتدحرجت الى البحر • عرفت ان هناك ثقبا فى جيبى ، وليس فيه نقود الآن فيما عدا جنيهين ذهبيين وشلنا فضيا ، والتقطت جنيها آخر من الأرض • وعندما غادرت كوينزفيرى كان معى حوالى خمسون جنيها • أما الآن فمعى ثلاثة جنيهات وأربعة شلنات ، رغم أننى كنت وريثا لبيت كبير •

كنت خائر القوى ، والبحر والمطر قد اتلفا ملابسى ، وحلقى لا يزال ملتهبا ، ومنظر القواقع البحرية يمرضنى ، لكنى مضطرا لأكلها •• وكنت عطشان ، ومياه البحر مالحة ، لذلك شربت من حفرة موحلة تجمع فيها بعض المطر ، ولم تكن هذه نهاية مشاكلى على الجزيرة •

توقف المطر أخيرا وظهرت الشمس ، فرقدت على

صخرة مسطحة بجانب البحر ٠٠ جففت الحرارة ملابسى ، وبعثت الشمس الراحة فى أوصالى ، وعادت لى بعض القوة والأمل ٠ وفجأة ظهر زورق صغير فيه رجلان يصطادان ٠٠ فصرخت :

ــ النجدة ! النجدة !

وسقطت على ركبتى ٠ لقد سمعنى الرجلان وصرخا باللغة الغيلية وأخذا يضحكان ، لكن الزورق لم يتوقف ٠ لم أصدق انهما تركانى ، فركضت على طول الشاطىء ، وأخذت أنادى عليهما ، وبكيت بكاء طفل غاضب !

وأكلت قواقع أكثر ، وأحسست بغشيان أكثر ، وكانت قواى قد خارت تماما ، وظننت بأنى سأموت لا محالة !

وفى اليوم الرابع ، رأيت نفس الزورق يبحر تجاهى ، فجريت للبحر ٠٠ وأخذت أقفز من صخرة لأخرى ٠ كانت ساقاى تهتزان من تحتى ، وانغص

حلقى من المرارة ومن الجفاف ، وانحبس صوتى بعض الوقت ، ولم أستطع النداء ٠

اقترب الزورق ٠٠ كان فيه ثلاثة رجال هذه المرة ، وعندما صحت ، ضحك الرجل الثالث ، ثم وقف فى الزورق ولوح بيديه ٠ وتكلم بالانجليزية وانصت ٠ وصل الى سمعى كلمة « المد » ٠ بدأ بريق أمل عندى ، وكان يشير نحو الساحل الرئيسى ٠٠

فصرخت :

ـ هل تقصد عندما ينحسر المد ؟

فقال :

ـ نعم ، نعم ، المد ٠

التفت بعيدا وركضت راجعا فوق الرمال ، والرجال لازالوا يضحكون ٠

جريت عبر الجزيرة وفى نصف ساعة وصلت الجدول ٠ كان الماء آنئذ ضحلا جدا ، فخضت فيه الى

الجزيرة الأصل – جزيرة مول · أما الجزيرة الصغيرة ، فكانت تتكون مع ارتفاع المد فقط ·

كنت فتى ريفيا ، لا أدرك هذا السر · لم يفهم الهايلانديون الذين كانوا فى الزورق مشكلتى ، لقد ظنوا أننى مجنون · لكنه كان وقتا عصيبا لى ··

الفصل التاسع عشر

الفتى ذو الزر الفضى

كانت جزيرة مول وعرة مثل الجزيرة الصغيرة . لم يكن فيها طرق مطروقة . ليس فيها سوى مستنقع وأحجار كبيرة .

رأيت دخانا يتصاعد من بعيد ، فسرت تجـاهه الى أن وصلت الى منزل .. ورأيت «جنتلمان هايلاندى» جالسا فى الشمس خارج المنزل ويدخن غليونه . كان يتكلم قليلا من الانجليزية ، لكننى فهمت منه أخبار رفاقى ، وأنهم وصلوا اليابسة ، ومكثوا فى منزله . فسألت :

ــ هل كان فيهم شاب يرتدى ملابس جنتلمان ؟

فقال ، بأن واحدا منهم لا يرتدى ملابس البحارة .

فقلت :

ــ آه ، أكان لديه قبعة ذات ريش ؟

فأجاب :

ــ كان بدون قبعة .

ربما فقد ألن قبعته ، ثم تذكرت المطر وابتسمت ، اذ تخيلت ألن بأناقته وهو يحتفظ بقبعته تحت معطفه ليحميها ! كان يحب ملابسه الأنيقة . **وفجأة قال العجوز :**

ــ هل أنت الفتى ذو الزر الفضى ؟

فقلت وأنا أظهره له :

ــ نعم .

فقال :

ــ حسن اذن ، عندى لك رسالة . عليك **أن** تتبع صديقك الى بلدة ناحية توروساى .

أدخلنى الرجل منزله واستمع هو وزوجته

لقصتى ، وقدما لى بعض الطعام ، ثم رحت فى نوم عميق ، وتركانى نائما حتى اليوم التالى ٠

استرددت بعض قوتى ، وأصبح حلقى أفضل بكثير ، كما أبهجتنى أخبار ألن ورفعت من معنوياتى ، فتركت الرجل الطيب وزوجته ، وسرت فى طريقى

وقابلت بعض النـــاس ، ولاحظت أن جميـــع الهايلانديين فقراء فى هذه البلاد الموحشـة ، وانهم يعرفون قليلا من الانجليزية ، ولم يستطيعوا أن يشرحوا لى الطريق الى توروساى ٠ تجولت كثيرا ، ومكثت احدى الليالى فى منزل صغير مقابل خمسة شلنات ، وقال لى صاحب المنزل بأنه سيرشدنى الى الطريق ، ولكنـــه خدعنى ولم يف بما قال ٠ وأراد آخر أن يسرق نقودى ، ولكنى هربت ٠

وفى توروساى عثرت على حانة صغيرة نمت فيها نوما هنيئا ٠ وبعد سفر أربعة أيام أصبحت قويا وفى صحة جيدة ٠

كان هناك زورق يعمل كمعدية من توروساى الى

كنلوخالين ، التى تعتبر أقرب مكـان على السـاحل الاسكتلندى · كان رجل المعدية اسمه نيل مكروب ، وهذا أحد أسماء عشيرة ألن · كان الزورق مزدحما وكنت أريد التحدث معه · وعند كنلوخالين أخـذته جانبا ·· **وقلت :**

ـ انني أبحث عن شخص يدعى ألن بريك ، ثم عرضت عليه شلنا ·· **فقال غاضبا :**

ـ انها اهانة يا سيدى ، الجنتلمان لا يتصرف هكذا ·

أدركت غلطتى · كان فقـيرا ، لكنه كان معتدا بنفسه ، مثل ألن ، فبينت له الزر الفضى ··

فقال :

ـ حسن ان كنت الفتى ذا الزر الفضى ، فلدى اوامر بمســاعدتك ، لكن يجب أن لا تتكلم عن ألن بريك ، ولا تعرض نقودك القذرة على جنتلمان هايلاندى!

وأخبرني برسالة ألن : وكان على أن أنام في الفندق الصغير الموجود في كنلوخالين ، وثاني يوم أعبر مورفن ، وأقضي الليل مع صديـق لألن ، وفي اليوم الثالث أعبر بحيرتين ، ثم أسأل عن طريقي الى دارور في أبين ، وبعدها أبحث عن منزل جيمسي جلينز في اوخارن .

كمـا أوصـــاني نيـل بأن أتجنب الهويجيين والكامبليين ، وذوى المعاطف الحمراء ، وعلى أن أختبيء بين شجيرات الخلنج اذا صادفتهم . لقد ظنني جيمسى ..

كان الفندق في كنلوخالين سيئا ، لكن نمت . وفي اليوم التالي قابلت قسا ، يقوم بجولة في أنحاء هايلاند اسمه مستر هندرلند . كان يقرأ كتابا عن الانجيل باللغة الغيلية ترجمه مستر كامبل من اسندين ، فجعلنا هذا أصدقاء ، فمشينا سـويا ، وتكلمنا عن الثعلب الأحمر والمستأجرين في أبين . **وأظهر استياءه لذلك قائلا :**

– جيمسى ستيوات من جلينز أخ غـير شـقيق

لاردشيل — انه رجل قاس — يجعل المستأجرين يدفعون ايجارا ثانيا ، وهذاك ألن بريك ٠

فقلت :

— آه ، ما رأيك فيه ؟

فأجاب مستر هندرلند :

أنه رجل شجاع ، جسور ، يستطيع عمل أى شيء ويقتل أى رجل ٠ أنه أفضل أنصار جيمسى ، لكنى أحترمه ٠

فسألت :

— وكولن كامبل ؟ الثعلب الأحمر ؟

— لديه مهمة شاقة ! سيأتى غدا مع ذوى المعاطف الحمراء لطرد المستأجرين ٠ ولكن الستيوارتيين شجعان عنيفون ، يخيل الى أنهم سيقتلونه !

استمتع مستر هندرلند بصحبتى ، فدعانى لقضاء الليلة فى بيته ٠٠ كان منزلا صغيرا على بحيرة لينه ٠ وقبلت الدعوة ، لأتجنب منزل صديق ألن ، اذ بدأت

أتحاشى الهايلانديين الغرباء ، بعدما حدث لى مع المرشد المزيف ، ونيل مكروب الغاضب ٠

عثر مستر هنــدزلند على زورق لى فى اليــوم الثانى ، سيعبر به صاحبه بحيرة لينه الى أبين بعد ظهر ذلك اليوم ، فأخذنى معه ، ووفر على سفر يوم طويل ٠٠ !

الفصل العشرون

الثعلب الأحمر

كانت البحيرة عميقــة ، والجبال على جانبيهــــا مرتفعة وعرة موحشة · انها بلاد قاسية ، لكن ألن كان يحبها · وكانت الشمس تنعكس على صفحة المـاء من بعيد ، ورأيت ـ وأنا فى الزورق ـ شيئا يتحرك على طول الساحل ·· تبينتهم ، فاذا بهم جنود المعاطف الحمراء ، بسيوفهم البراقة ·· كانت القوات تســـير لطرد المستأجرين فى أبين · انه موضوع مؤسف ·

عبرنا البحيرة ، وأنزلنى صـــاحب الزورق على الشاطىء ، فرأيت غابة لترمور من فوقى ، وأشــجار السفدر منتشرة على جانب الجبل ونبـــات السرخس



عبرنا البحيرة ، وانزلنى صاحب الزورق على الشاطئ

يغطى السفح ، ويجرى طريق من الشمال للجنوب عبر منتصف الغابة . وجلست عند حافة الغابة لآكل بعض الخبز ولأفكر فى موقفى ، وتذكرت كلمات مستر هندرلند عن السيتوارتيين فى أبين ، فجعلنى هذا قلقا .

ماذا يجب أن أفعل ؟ لماذا أنا ذاهب الى ألن ؟ انه خارج عن القانون .. وربما قاتل . لماذا لا أتجه نحو الجنوب ، حيث موطنى ؟

كنت مستغرقا فى التفكير ، عندما سمعت صوت جياد ، ورأيت أربعة رجال قادمين على طول الطريق عبر أشجار السندر . وكان الطريق وعرا ضيقا فى هذا المكان ، لذا فقد كانوا يسيرون واحدا خلف الآخر ، وهم يقودون جيادهم .

كان الأول « جنتلمان » ضخما متغطرسا بشعر أحمر ، والثانى يرتدى رداء أسود نظيفا ، وشعرا أبيض مستعارا ، أدركت أنه محام ، وكان الثالث خادما ، أما الرابع فهو الشريف ، منفذ القانون .

وعندما وصل الرجل الأول بالقرب منى ، نهضت من بين أجمات السرخس ، واستفسرت عن الطريق الى أوخارن • وقف الجنتلمـــان ونظر الى باندهاش ، ثم التفت نحو المحامى وقال :

ـ أهـــذا فأل سيء •• اننى ذاهب الى دارور ، وأنت تعرف سبب ذلك ، وهذا الفتى يسألنى الطريق الى أوخارن •

فقال الآخر :

ـ جلينور ، لا تهزأ بالموضوع !

وقف الرجال وأخذوا ينظرون الى •

ـ ماذا تريد فى أوخارن ؟

سألنى هذا الســـؤال ، كولن روى كامبل من جلينور • أنه الثعلب الأحمر نفسه •

فاجبت :

ـ صاحب المنزل !

فقال جلينور :

ـ جيمس جلينز ؟!
ثم التفت الى المحامى مرة أخرى ٠

وقال :

ـ هل تعتقد أنه يجمع رجاله ؟

فقلت :

ـ ان كنت تقصـــدنى ، فانا لست من رجاله ، ولا من رجالك أيضا ، انما أنا هويجى شريف مخلص للملك جورج ٠

فقال الثعلب الأحمر :

ـ ولماذا أنت بعيد عن بلدك أيها الرجل الشريف ؟ لماذا تريد الأخ أردشيل ؟ اننى ذو نفوذ هنا ، ولتعلم ، أن قوات الملك تحت امرتى ٠

فقلت بغضب :

ـ سمعت أنك رجل قاس ٠

فنظر الى فى صمت ٠

ثم اردف قائلا :

ـ حســـن ، لســـانك جرىء ، لـكنى أحترم صراحتك ·· ؟ سأخبرك طريق باب جيمس ستيوارت ، انما ليس اليوم ·· فما رأيك ؟ ·

كان يوجه كلامه للمحامى مرة أخـرى ، والتفت اليه ، وفجأة جاءت رصاصة من جانب التل ، وسقط جلينور على الطريق · **واخذ يصرخ المرة تلو المرة :**

ـ أوه ، لقد مت !

رفعه المحامى الى أعلى قليلا ، وأمسكه بين ذراعيه ، ووقف الخادم مذهولا خائفا · ووضع المصاب يديه على صدره ، فانزلقت أصابعه على أزرار معطفه ، ثم سحب نفسا عميقا مالت بعده رأسه على كتفه · لقد مات ، لقد قتلته الرصاصة ·

وقف المحامى صامتا ، ووجهه مكفهرا شاحبا ، أما الخادم فصرخ كالأطفال ، وكنت مملوءا بالرعب ·· !

ركض الشريف عائدا ليحضر الجنود ، وأوقد المحامي الرجل الميت على الطريق ونهض ٠

ركضت متسلقا التل **وأنا أصرخ** :

ـ القاتل ! القاتل !

رأيت على الجبل المكشوف رجلا يتحرك مبتعدا ٠ كان يرتدي معطفا أسود له أزرار معدنية ويحمل بندقية ٠ هل هو الذي أطلق النار ؟ ٠٠

وصحت :

ـ انه هنا ! انني أراه !

ألقى الرجل بنظرة خاطفة من فوق كتفه ، وبدأ يركض ، ثم اختفى فورا وراء بعض الأشجار ، ثم ظهر فوقهم ٠ كان يتسلق بسرعة عابرا قمة التل وتوارى عن الأنظار وراء الصخور ٠٠ **وسمعت صوتا ينادينى** :

ـ قف ! قف ! ارجع !

نظرت خلفى ، فرأيت المحامى والشريف يلوحان لى ، وذوى المعاطف الحمراء قادمين من الغابة عن يسارهم،

فصحت :

ـ أرجع ؟ لماذا ؟ تعالوا أنتم الى هنا !

فصرخ المحامى :

ـ عشرة جنيهات ان امسكتم هذا الولد ! أنه شريك القاتل · لقد أرسلوه هنا لايقافنا !

سمعت ذلك ، وامتلأ عقلى بخوف جديد ·· فالخطر على حياتك شيء سيء ولكن الخوف على حياتك وسمعتك أسوأ · لقد ظنوا أننى شريك القاتل · ووقفت مشدوها لا أقدر على الحركة · فماذا أفعل ؟

انتشرت الجنود ·· ركض بعضهم نحوى ·· وصوب بعضهم بنادقهم نحوى ·· لكنى مازلت غير قادر على التصرف ··

فسمعت صوتا هاتفا :

ـ تعال ، ادخل بين الأشجار ·

كان الصوت قريبا جدا ·· أطعت دون تفكير ·· وسمعت فى نفس الوقت طلقات نارية ·· وفى داخل

ملجأ أشجار السندر رأيت ألن واقفا ٠٠ كانت فى يده سنارة لصيد السمك ، **وقال :**

ـ تعال !

وركض على طول جانب الجبل ٠٠ وتبعته مسرعا ٠

ركضنا بين الأشجار ، واختبأنا خلف تلال صغيرة، وزحفنا على أيدينا وركبنا بين شجيرات الخلنج ، وتحركنا بسرعة ، حتى انقطع نفسى ، وشعرت بأن قلبى سينفجر ٠ وبعد ربع ساعة توقف ألن ، ورقد على نباتات الخلنج ٠ **والتفت الى وقال :**

ـ انها خطيرة هذه المرة ٠٠ اتبعنى من أجل حياتك ٠

وبنفس السرعة ، ولكنى بحرص أكثر ، رجعنا عبر جانب الجبل ، ولكن على ارتفاع أعلى ، الى أن عدنا مرة أخرى داخل الغابة ٠ وفى النهاية ألقى ألن سنارته ، ورقد على وجهه فى أجمات السرخس ، وهو يتنفس

بعمق شديد جدا ·· أما أنا فشعرت بجانبى يؤلمنى ، ورأسى يدور ، ولســـــانى جاف ، وقواى خائرة ·· فتمددت بجانبه كالميت ·· !

الفصل الحادى والعشرون

حديثى مع ألن فى الغابة

استرد ألن قواه من ركضنا الشاق ، وذهب الى طرف الغابة ، ونظر خارجها قليلا ٠

ثم عاد وجلس قائلا :

ـ حسن ! كان ركضنا عنيفا يا ديفيد !

لم أنبس ببنت شفة ، ولم أرفع رأسى ٠ لقد شاهدت المقتل المفاجىء لجنتلمان قوى أنيق ٠٠ ولم أفق من الصدمة بعد ٠

مازلت أشعر بالرثاء ، لكن ٠٠ شخصا ما قتل الثعلب الأحمر ، وألن ـ الخبير بالبندقية ـ يكره هذا

الرجل .. وكان موجودا هنا ، مختبئا فى الأشجار .. وهاربا من الجنود .. ترى هل هو الذى أطلق النار ، أم أنه هو الذى أعطى الأمر بقتـــل الرجل ؟ لا تفرق كثيرا ..

صديقى الوحيد فى أراضى هايلاند الموحشة مذنب بجريمة قتل . ولم أستطع النظر اليه .

سألنى :

ــ أمازلت متعبا ؟

فقلت ووجهى فى السرخس :

ــ لا ، الآن ارتحت ، وأستطيع أن أتكلم . يجب أن نفترق .. لقد أحببتك ، وأعجبت بك يا ألن .. لكن طريقك غير طريقى ، ولا هو طريق الله .

فقال ألن بجدية واضحة :

ــ لن أفترق عنك بلا سبب وجيه .. اذا كنت تعلم شيئا ضدى فأخبرنى به ، وان كنت كارها لرفقتى فقط ، فلابد أن أعرف السبب ..

فقلت :

ـ ألن ، تعلم جيدا ، أن رجل كامبل يرقد قتيلا في دمه تحت هناك !

صمت فترة ثم تكلم قائلا :

ـ مستر بالفور من شوز .. اذا قتلت ، فلن أقتل هنا ، لأجلب لجماعتى وعشيرتى المشاكل ، وكيف لى ذلك بدون سيف أو بندقية ، فسنارة صيد السمك لا تكفى .

فقلت :

ـ حسن ! هذا صحيح !

فاستمر ألن قائلا :

ـ والآن ، أقسم بشرفى بأنه ليس لى أى ضلع في الموضوع ..

فصرخت قائلا :

ـ أحمد الله على ذلك !

ومددت له يدى ، لكنه لم يرها ،

وقال :

ـ هاهى ، مشـــاكل كثيرة بخصوص واحد من الكامبليين ، وغيرها كثير ، أليس كذلك ؟

فقلت :

ـ لا يمكنـــك لومى · هل نذكر كلمـاتك على السفينة بأنك تكره الثعلب الأحمر ، وتتمنى موته ·· لكن التفكير شىء والفعل شىء آخر · شكرا لله على ذلك . أنا سعيد بعدم اشتراكك فى قتله يا ألن ·· وها هى يدى أقدمها لك ثانية ·

فصافحنى بكلتا يديه وقال بأنه يســتطيع أن يغفر لى أى شىء ·· ثم أشار بأننا يجب أن لا نضيع وقتنا ولنغادر البلاد · **وأكد قائلا :**

ـ بعد موت جلينور سيفتش ذوو المعاطف الحمراء كل شخص فى أبين ، وأنا هارب من الجندية بينما أنت شريك القاتل ·· ليس لنا بقاء هنا ·

فسالت :

ـ الى أين نذهب ؟

فاجاب :

ـ الى الأراضى المنخفضة ٠

كنت ســـعيدا ، فالأراضى المنخفضـــة بلادى ، وميراثى هناك ، علاوة على أننى يجب أن أعود لأعاقب عمى ٠

لست مذنبا ولا شريكا فى جريمة قتل الثعلب الأحمر ، لكننى خفت أن أموت بسبب ذلك ، **فقلت :**

ـ سوف أذهب معك يا ألن ٠

فقال :

ـ ستكون حياة قاسية ، وسنكون متعبين جائعين دائما ، ولن نجد المأوى ، وسننام فى الخلنج ، ويمكن أن يصطادونا كما يصطادون الغزلان ٠ اننى أعرف هذه



ونظرنا من بين شجر السندر

الحياة جيدا ، تعودت عليها · لا يوجد بديل ، أما أن تختبىء معى فى الخلنج واما تشنق !

نظرنا من بين شجر السـنـدر ، فوجدنا ذوى المعاطف الحمراء يحومون فى الطرف البعيد من الجبل ·· انهم يبحثون عنا ·· **وضحك قائلا** ،

ـ سيحل بهم التعب ، فلنجلس لنأكل ونرتاح قليلا يا ديفيد ، ثم نذهب الى أوخارن حيث منزل جيمس سيتوارت قريبى ، وأحصل على ملابسى وأسلحتى وبعض المال ، ثم نتابع طريقنا ·

أكلنا ، وشربنا ، وراقبنـا غروب الشمس ·· ووصفت ما تجشمته من متاعب وعناء على الجزيرة بعد غرق السفينة ·· وقص على ألن آخر مغـامراته على السفينة : رأى الموجة العاتية وهى تسحبنى فى البحر ، فركض بجانب السفينة ، ورآنى أهبط وأعلو عدة مرات، بعدها تعلقت بذلك الصارى ، فأمل أن أصل اليابسة ، لذلك ترك لى رسائل فى الطريق ·

وفى أثناء ذلك ، أنزل البحارة الزورق الى الماء ، وجاءت موجة عاتية أخرى ، فقفز كل من على السطح الى الزورق الصغير ، وغمر الماء الكوة ، وتسرب الى السلوقية ، وعلا صراخ الجرحى بها ، لكن لم يستطع أحد فعل أى شىء لهم ، وشد البحارة على المجاديف ، فتحرك الزورق بعيدا عن السفينة ، ثم جاءت موجة ثالثة فطمرت السفينة بالجرحى الذين بداخلها • وغرقوا جميعهم مع فئران السفينة •

ووصلوا الى الشاطىء صامتين لا يحملون معهم الا رعبهم •• وبعدما أفاق هوسيسون لوعيه ، صرخ وهو يشير الى ألن :

ـ أمسكوا هذا الرجل !

لكن البحارة كانوا خائفين ، ولم يحركوا ساكنا . فصاح هوسيسون :

ـ انه بمفرده ! ومعه نقود كثيرة •• فقدنا السفينة ، وفقدنا رفاقكم فى السلوقية •• انها غلطته •

وانتشر البحارة ملتفين حول ألن .. كانوا سبعة ضده . صرخ عندئذ رياتش فتوقفوا .

ثم استمر ألن قائلا :

ـ **أعتقد أنه** لم يكن رجلا سيئا للغاية . لقد كان آسفا بخصوص السفينة والرجال المصابين ، وصاح فى بأن أجرى ، فجريت وتركتهم يتجادلون ويتعاركون .

لم أحب تركهم ، لكنى كنت مضطرا ، ولم أستطع البحث عنك ، لأنى كنت فى بلاد الكامبليين ، وهم ليسوا أصدقاء لى ..

الفصل الثاني والعشرون

زيارتنا لأوخارن

سرنا فوق سفوح جبال وعرة ، وكانت الليلة مظلمة بسبب الغيوم المتلبدة ، لكن ألن يعرف الطريق .. وفي حوالى العاشرة والنصف رأينا أضواء تتحرك تحتنا ، وأناسا يدخلون ويخرجون من أحد المنازل بسرعة . فقال ألن :

ـ هل جن جيمس ؟ اذا جاء ذوو المعاطف الحمراء ، فسيعكرون صفوه ، لكنى أتوقع أن أحد رجاله يراقب الطريق . انه يعلم أن الجنود لا تستطيع معرفة طريقنا من فوق الجبل .

وأطلق ثلاث تصفيرات بطريقة خاصة ، وقف

الكل ساكنا عند سماعهم أول تصفيرة ، مما يدل على خوفهم ، لـــكنهم عرفوا اشــارة ألن عند التصــفيرة الثالثة ، فاستمروا فى عملهم ..

نزلنا التل ، واستقبلنا عند البوابة رجل طويل أنيق ، تحدث مع ألن بالغيلية . **وقال ألن :**

ـ جيمس ســـيتوارت ، تكـــلم الانجليزية ، فالجنتلمان لا يفهم لغة أخرى ..

واضاف وهو يضع ذراعة حول ذراعى :

ـ انه من الاراضى المنخفضة ، وهــو لــورد فى بلده ، ولن أخبرك عن اسمه لسبب أمنى ..

رحب بى جيمس برقـــة .. **ثم التفت الى ألن صائحـا :**

ـ أنها حادثة مروعة ، ستجلب البلاء على البلاد وعلى الأبرياء .

وكان يبدو مهموما جدا .

فقال ألن :

ـ آه ، حسن ، لقد مات كولن روى ، فلتبتهج لذلك ·

فقال جيمس :

ـ نعم ، تمنينا موته دائما ، وها هى أمنيتنا تتحقق ، لكن من سيتحمل المسئولية ؟ لقد وقع الحادث فى ابين ، وابين ستدفع الثمن · اننى مسئول عن كثيرين ، ونحن أبرياء ·

كنت أراقب الخدم أثناء حديثنا ، كان بعضهم فوق السلالم الخشبية يتناولون بنادق وسيوفا وأسلحة أخرى يأتون بها من سطح المنزل ومن مبانى المزرعة ، ثم يحملها آخرون بعيدا ، ويدفنونها فى جانب التل · كانوا يقومون بعملهم بسرعة ويتحدثون بصوت هامس ·

كنت أدرك أنهم قلقون ، لقد تذكرت أن الحكومة كانت قد منعت الهايلانديين من استخدام الأسلحة ·

وخرجت فتـاة من المنـزل حاملـة صرة ، فأثار المنظر اهتمام ألن في الحال · **فسأل :**

ـ ما الذى تحمله الفتاة ؟

فقـال جيمس :

ـ اننـــا ندفن بعض الأشــياء يا ألن لأن ذوى المعاطف الحمراء سيفتشون كل أبين ، اننـــا نخبىء البنادق ·· وأظن أن هذه ملابسك الفرنسية ·· يجب أن ندفنها هى أيضا ·

فصرخ الن .

ـ تدفنون ملابسى الفرنسية ! لا طبعا !

أخذ الصرة بسرعة من الفتاة ، ودخـــل المنزل ليبدل ملابسه · وأخـذنى جيمس الى المطبخ وكلمنى برقة · كانت زوجته تجلس بجانب المدفـــأة تبكى ، ووجهها بين يديهـا ، وكان ابنه الكبير يتفحص حزمة كبيرة من الاوراق ويأخذ بعضها ويحرقه ، وخادمة ذات وجه أحمر تبحث فى الغرفة عن شىء ما ، وأحيانا يأتى

رجل يطل برأسه من الباب يستفسر عن شيء ثم يختفي .

وأخيرا اعتذر جميس . واخذ يتمشى قائلا :

ــ لا أستطيع أن أنسى هذا الحادث الفظيع ، سيجلب البلاء على اشخاص ابرياء .

ورأى ابنه يحرق ورقة ، فظن أنها هامة ، فضربه وصرخ فيه بالغالية :

ــ هل أنت مجنون ! سوف تشنقني !

لم يقل الشاب شيئا ، لكن زوجته أخذت تبكي بصوت أكثر ارتفاعا .

تسبب هذا كله في ازعاجي ، وسررت عندما عاد ألن في ملابسه الفرنسية . لم تكن كما يجب ، فماء البحر قد اتلف منظرها بعض الشيء . وأخذني ابن آخر لجيمس ، وأعطاني بحتان بعض الملابس النظيفة ، ثم أعطوا كل واحد منا سيفا ومسدسا وبعض الذخيرة .

أما بالنسبة للأكل ، فكان كيس طحين بالاضـافة الى زجاجة براندى فرنسى جيد ، كذلك اخذنا مقلاة لعمل العصيدة · أصبحنا مستعدين ، لكن ليس معنا الا نقود قليلة · فمعى حوالى جنيهين ومع آلن بضعة بنسات ، فلقد أرسل حزامه الذهبى الى فرنسا · وكان جيمس قد دفع كل ماله للمحامين لمساعدة المستأجرين ، ولم يكن معه سوى ثلاثة شلنات وخمسة بنسات فقط ·

فقال آلن :

ــ هذا لا يكفى !

فقال جيمس :

ــ اختبىء فى مكان أمين ، وارسـل لى رسالة ، وقدر استطاعتى سأرسل لك نقودا ·· لكن يجب أن تغادرا بسرعة ، سيحملونك مسئولية هذا الحادث ، وسيبحثون عنك · واذا اعتبروك مسئولا ، فسيعتبروننى مسئولا أيضا ، فأنا قريبك ، وتقيم فى منزلى ·

كان وجهه باهتا ويجز على أصابعه **عندما قال :**

ـ واذا شنقت ، فسيكون وقع ذلك سيئا على أصدقائنا .. أوه ، ألن ، ألن ، لقد تكلمنا كالحمقى !

قال ألن :

ـ هذا صحيح ، كنا حمقى .

ونظر الى واضاف :

ـ لقد اعطانى صديقى نصيحة طيبة ، ولكن لم أستمع له .

ثم اردف ايضا :

ـ حسن ، سيبزغ النور قريبا فى شهر يوليو هذا . وغدا سيأتى ذوو المعاطف الحمراء الى هنا . يجب أن نترككم .

وودعناهم وخرجنا فى طريقنا .. وكانت ليلة مظلمة جميلة فوق الجبل .

الفصل الثالث والعشرون

وادى الصخور

كنا نمشى أحيانا ونركض أحيانا أخرى ، وجاء النهار فى الحال ، ومازلنا بعيدين عن المأوى ، فلا توجد أشجار فى أى مكان . كنا فى واد مغطى بالصخور التى يتدفق خلالها نهر عميق . **وكان وجه ألن قلقا وهو يقول :**

— انه مكان غير صالح لنا .. سيراقبون هذا المكان .

وركض نحو الماء . كان النهر منقسما قسمين بين ثلاث صخور ، والماء ينسكب الى أسفل فى صوت كالرعد . ولم يتوقف ألن ، وقفز من الصخرة الاولى

الى الثانية ، فقلدته ، وكدت اسقط فى الماء لولا أنه أمسك بى • ووقفنا سويا على صخرة صغيرة مبتلة ، أمامها قفزة أوسع من الاولى ، عندما رأيتهـــا شعرت بدوار ، فوضعت يدى فوق عينى • فهزنى ألن وتكلم ، لكن ضوضاء الماء جعلتنى لا أسمع كلماته ، ورأيتـه غاضبا • ووضع زجاجة البراندى على شفتى ، فشربت ، ثم صرخ فى أذنى :

ـ تعلق أو اغرق !

وأعطانى ظهره وقفز الى الجانب البعيد • اصبحت بمفردى فوق الصخرة الصغيرة • لكن البراندى قـــد بعث فى اوصالى بعض الدفء ، ورأيت اننى يجب أن اتحـــرك فى التو ، لاننى اذا انتظرت ، فلن أفعلهـــا مطلقا ، فانحنيت على ركبتى ، ورميت بجسمى للامام ، فوصلت يداى فقط الى ضفة النهر ، وانزلقت ثم تعلقت وانزلقت ثانية ، وكدت أسقط لولا يد ألن التى وصلت الى ، فأخـــذ يسحبنى من شـــعرى أولا ، ثم من ياقة قميصى ، وانتشلنى بكل قواه •

لم يتفوه بكلمة ، لكنه ركض للأمام مرة أخرى ،

فوقفت على قدمى ، وتبعته على طول الوادى ، آلى أن آلمنى جنبى ٠

توقف ألن أخيرا تحت صخرة كبيرة ارتفاعهـــا حوالى عشرين قدما ، ولها جوانب مستقيمة ، فوقف على كتفى ثم وجد حيزا صغيرا ، وضـــع فيه قدمه متسلقا ببطء الى القمـــة ، ثم أدلى بحزامه الجلدى الطـــويل لمساعدتى ، فتبعته ، وكانت الصخرة ، عند القمة ، مجوفة جهة الداخل كصحن كبير ، تصلح كمأوى وساتر لنا ، فاختبأنا فيها ٠٠

رقد ألن فى التجويفة ونظر من فوق طرفها ٠٠ فاستطعنا رؤية الوادى ، والصخور ، والنهر ٠ ولـــم تكن هناك أية علامة لمنزل أو صوت لانسان ، فقط كان هناك صراخ النسور فوق احدى الصخور ٠ وابتسم ألن أخيرا ٠

وقـــال :

ـ لدينا فرصة الآن ٠٠ ولكن احترس ٠٠ فأنت لا تقفز جيدا ٠٠ !

أحسست بالخجل من نفسى ·

ولكنه قال بسرعة :

ـ حسن ، اننى لا ألومك ! فالخـوف من شئ والقيام به رغم ذلك هو أبسل الأعمال · ثم هناك الماء أيضا · انى ، نفسى أخاف الماء · لا ، لا ·

واستمر قائلا :

ـ انى ألـوم نفسى ، لا أنت ، أولا : اجتـــزت طريقا خطــأ فى بلدى · وها نحن فى مكـان سىء · ثانيا : جئت بدون زجاجة ماء · وسنقضى هنـا يوم صيف طـويل ·· نم انت الآن يا فتى ، وســأقوم بالمراقبة ·

كانت توجد أرضية صغيرة فى التجويفة ، ينمو عليها بعض السرخس ، فرقدت عليها ، نمت ·

استيقظت فى التاسعة صباحا تقريبـا ، وكنت أتنفس بصوت عال ·

فوضع ألن يده فوق فمى هامسا :

ـ اسكت !



ورايت حراسا آخرين على طول الوادى

وأشار الى حافة الصخرة ·· كان نهارا ساطعا حارا ، وعلى بعد نصف ميل يوجد معسكر جنود ، كانوا يطهون طعاما على نار كبيرة ، وكان يقف على صخرة مرتفعة أخرى بجوارنا أحد الحراس ، كما رأيت حراسا آخرين يمشون ذهابا وايابا على طول الوادى ؛ نظرت مرة واحدة ، ثم نزلت فى التجويفة بسرعة ·

فقال الن :

ـ كنت على صواب عندما ظننت أنهم سيراقبون النهر · لقد أتوا منذ ساعتين · اننا فى مكان ضيق · اذا صعدوا الى جانب التل فقد يروننا ، أما اذا بقوا تحت فى الوادى ، فقد نكون فى مأمن · يجب أن نتحرك عندما يأتى الليل ·

فسألت :

ـ وماذا سنفعل حتى الليل ؟

فقال :

ـ نرقد هنا ، ونحترق ·

كانت كلمة ، نحترق ، كلمة صادقة · فلقد ضربتنا الشمس القاسية طوال النهار · وكنا عطشى وليس لدينا ماء ، وكان السرخس يكفى لشخص واحد فأخذنا نتناوب الرقاد عليه · وكانت الصخرة حارة كالنار ·

وكان ذوو المعاطف الحمراء يغيرون الحرس أحيانا ، وأحيانا أخرى يفتشون بين الصخور · وجاءوا ملاصقين لنا تماما ، ورأيت حراب الصلب الحادة تندفع فى اعشاب الخلنج ·

مر الوقت ببطء ، وازدادت حرارة الشمس والصخرة ، وشعرت بالاغماء ، وكانت الآلام حادة فى جسمى · وعند حوالى الساعة الثانية لم نعد نحتمل أكثر من ذلك ، وكانت الشمس تتحرك قليلا نحو الغرب ، وبدأت بعض الظلال فى الجانب الشرقى تحت الصخرة · وكان هذا الجانب بعيدا عن الجنود ،

فقال الن :

ـ أهى موته أم أكثر ؟

وتدلى أرضا فى الظل ، فقلدته فى الحال وسقطت ، ورقدنا هناك مدة ساعة أو اثنتين ، هزيلين، دائخين ولكننا كنا محظوظين اذ لم يأت أى جندى .

واستردنا قوتنا بعد فترة . وكان ذوو المعاطف الحمراء في حالة استرخاء بالقرب من النهر ، كما كانوا يعانون أيضا من الحرارة ومتعبين ، ولا يقومون بالمراقبة بشكل جيد ، فأشار آلن بالتحرك ، فانتقلنا من صخرة الى صخرة ، كنا نزحف أحيانا على بطوننا ، ونجرى أحيانا أخرى ، وتحركنا أسفل الوادى بعيدا عن المعسكر .. وبعد الظهر كان السكون شديدا لدرجة أننا اذا حركنا صخرة واحدة بأقدامنا فقد يزعج صوتها المعسكر كله .. !

وعند الغروب وصلنا الى جدول ماء عميق فى جانب التل ، كان يجرى مندفعا ليلحق بالنهر فى الوادى ، فسقطنا على الأرض ، وغطسنا رءوسنا ، وأكتافنا فى الماء العذب البارد ، وأخذنا نشرب ونشرب ، ثم أخرجنا كيس الطحين وخلطناه بالماء وأكلناه .

وجاء الليل ، وانطلقنا مرة أخرى . كنا أكثر شجاعة ، ولم نكن متعبين .. وكنا نرى الارض كما أن القمر ظهر أخيرا وبين لنا الجبال ، وبحيرة مالحة عميقة ضيقة . وألن يعرف الطريق .

لقد أصبحنا الآن فى مأمن ، فأخذ يغنى ، ويصفر ، وجعلتنا الموسيقى مرحين .. ومشينا فوق الجبال الشامخة الجرداء ..

الفصل الرابع والعشرون

الن يبعث برسالة

قبل الصباح وصلنا الى جسر في قمة الجبل ، وكان الماء ينساب من وسطه ، ويوجد على أحد الجوانب كهف فى صخرة ، وتنمو أشجار السندر فى أيكه نحيلة رائعة الجمال ، وهناك على مسافة ليست بعيدة غابة من أشجار الصنوبر ·· ونمنا فى الكهف ، وقطعنا فروع الخلنج لنصنع فراشا لنا ، وكان غطاؤنا معطف ألن ، واوقدنا نارا صغيرة لنتدفأ عليها ، وطهونا عصيدة ساخنة فى القلاية ، وسمكة صغيرة من الجدول · لم يكن معنا سنارة للصيد وكنا لا نحتاج اليها ، حيث اننا وقفنا فى الماء ، وأمسكنا السمكة بأيدينا ·

مكثنا فى هذا المأوى خمسة أيام • كان مكانا ساحرا ، وعندما كنا لا نصطاد ، كان ألن يعلمنى استخدام السيف • كان مدرسا شرسا ، ولم أستطع ارضاءه مطلقا •

وأثناء ذلك ، وضعنا خطط هروبنا •

وفى أول صباح قال الن :

ـ لن يأتى ذوو المعاطف الحمراء الى هنا قبل فترة طويلة •• ويجب ان نبعث برسالة الى جيمس ، وعليه أن يجد لنا بعض النقود •

فقلت :

ـ كيف نبعث برسالة ، ونحن لا نستطيع مغادرة هذا المكان •

فقال الن :

ـ حقا ؟ أين أفكارك يا ديفيد ؟ سأبتكر وسيلة !

وجلس يفكر برهة من الزمن ، ثم التقط قطعة خشب ، وصنع منها صليبا ، ثم أحرق الأطراف الأربعة بالنار •

ونظر الى قائلا :

ـ هل يمكن أن تعيرني زرى ؟ انه طلب سخيف .. لكنى لا أحب أن أقطع زرا آخرا من معطفى ·

وأعطيته الزر ، فمزق شريطا رفيعا من ملابســه ، ومرره من ثقب الزر ، ثم ربطه بالصليب مضيفا بعض أوراق الصنوبر والسندر وقال :

ـ والآن أستطيع أن أثق فى بعضـــهم ، ولكن ليس فيهم كلهم· انك تعلم ياديفيد أنهم فقراء ، والحكومة ستعرض مكافأة لمن يجدنا ، وفى كل مكان يوجد أناس ضعاف النفوس .. لهذا السبب · يجب ألا يرونى · ساهبط القرية عند حلول الظلام ، وسأترك هذا الصليب فى نافذة صديق ·

فاستفسرت :

ـ وان وجده ماذا سيفهم من هذه الرموز ؟!

فقال الن :

ـ حسن ، أنه ليس ذكيا جدا ، لـكننى آمل أنه سيقدح ذهنه : فالصليب يبدو كالصليب المحروق ،

وهذه اشارة فى جماعتنا ، ومعناها أنه يجب على الجماعة أن تتجمع وتحارب ، ثم سيرى الزر الخاص بى ، فسيقول لنفسه : « ان ألن فى مرج الخلنج ويحتاجنى » !

فقلت :

ــ نعم ، لكن هنــاك كثير من مروج الخلنج فى هايلاند ، فكيف سيهتدى اليك ؟

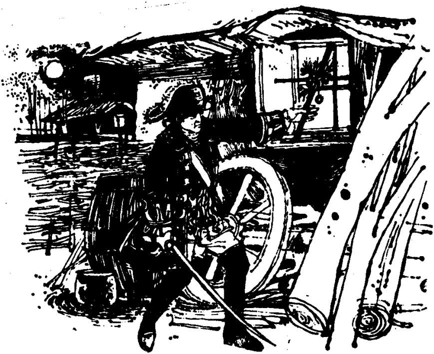
فقال ألن :

ــ معك حق ، ولكنــه سيرى أوراق الســندر والصنوبر ، فسيفكر ، « ألن فى غابة فيهــا كل من أشجار الصنوبر والسندر » ، ولا توجد فى هذه المنطقة غابات كثيرة فيها كل من الصنوبر والسندر • وآمل أن يأتى الى هنا للبحث عنى •

فقلت بابتسامة :

ــ انها فكرة بارعة ، لكن هناك طريقة أســهل يا ألن ، لماذا لا تكتب له ؟

فرد ألن ابتسامتى واجاب :



في تلك الليلة وضع آلن الصليب المحترق في نافذة صـديقه

ـ لأن هذا الصديق يا مستر بالفور من شوز ، لا يعرف القراءة ٠

فى تلك الليلة حمل ألن صليبه المحترق ، ووضعه فى نافذة صديقه ، وعندما عاد كان مضطربا ٠ اذ قامت كلاب القرية بضجة كبيرة ، وخرج الناس من منازلهم ، ورأى أحد ذوى المعاطف الحمراء على أحد الأبواب ٠ وفى اليوم التالى قبعنا عند طرف الغابة ، وكنا نراقب المكان دائما ٠

وظهر عند الظهر رجل ذو لحية ، يصعد جانب الجبل ببطء ٠ وعندما صفر ألن جاء نحونا ٠ كانت له نظرة متوحشة غبية ، وتبدو عليه ملامح الخوف ٠ فقال له ألن أنه يجب أن يحمل رسالة الى جيمس ، فرفض قائلا ، أنه ربما ينسى الكلمات ، ولا بد أن يأخذ الرسالة مكتوبة ٠ فاعتقدت أن هذه العقبة قد تهزم ألن ، فليس لدينا قلم ولا حبر ، لكن ألن كان صاحب أفكار !

بحث فى الغابة ، حتى وجد ريشة طائر كبير ، فقطع طرفها الأبيض السميك ليعمل منها قلما ، وخلط

البارود مع الماء ليصـــنع نوعا من الحبر ، ومزق قطعة صغيرة من وثيقـــة الجيش الفرنسى ، ثم جلس وكتب ما يلى :

ابن العم العزيز

ارجو ارسال النقود مع حامله ، انه يعرف المكان .

ابن عمك

ا.س.

أخذها الرجل ونزل بها التل ، وعاد فى مســاء اليوم الثالث . وجاء لنا بأخبار : ذوو المعاطف الحمراء فى كل مكان ، جيمس ستيوارت ، وبعض خدمه فى السجن ، هم والناس الذين من المفروض أنهم ساعدوا فى الجريمة ، والكل مؤمن بأن آلن هو الذى أطلق النار. عرضت الحكومة مكافأة تبلغ مائة جنيه للقبض على آلن وعلى . مع خطاب صغير حزين من مسز ستيوارت ، التى أرسلت أربعة جنيهات ذهبا وجنيها واحدا من العملات الصغيرة ، فهذا كل ما لديها ، وأرسلت أيضا نسخة من

اعلان الحكومة ضدنا الذى وصف ملابس ألن بالضبط ، ولم يصف ملابسى ٠

فقلت :

ـ ألن ، يجب أن تبدل ملابسك ٠

فقال :

ـ لا ، طبعا ، ليس لدى غيرها ، ولا أستطيع العودة لفرنسا برداء هايلاندى ٠

لاحت فى خاطرى فكرة ٠٠ اذا تركت ألن فسأكون آمنا ، فلا أحد يستطيع التعرف على من ملابسى الحديثة التى أخذتها من الستيوارتيين ، وألن لديه خمسة جنيهات وعليه أن يسافر الى فرنسا ، وأنا لدى جنيهان للوصول لمسافة أقصر ، حتى كوينز فيرى ٠ وتشكل مصاحبة ألن خطرا على حياتى ، ولابد أنها ستكلفنى مالا أيضا ٠

أنها لم تكن فكرة كريمة ، وألن الشريف يعتقد أنه يساعدنى ٠ ماذا أفعل ؟ لم أقل أى شىء ، لكن الفكرة ظلت فى خاطرى ٠

الفصل الخامس والعشرون

الأرض البور

تركنا الكهف فورا ، وسافرنا طوال الليل ، ثم توقفنا فى الصباح الباكر . لقد وصلنا الى نهاية سلسلة الجبال الطويلة التى أمامها أراض بور بباب مكشوفة . كانت الشمس فى بداية شروقها ، فجلسنا نأكل ونخطط.

وقال آلن :

ـ هذه هى المنطقة الصعبة يا ديفيد . هل نرقد هنا حتى المساء ، أم نجرب الأرض البور المكشوفة نحو الشرق ؟ واذا جاء ذوو المعاطف الحمراء فيمكنهم أن يرونا من على بعد .

فأجبت :

ـ ألن ، لا نستطيع أن نعود غربا الى أبين ، وليس لدينا ما يكفى من نقود وطعام ·· دعنا نرحل الآن ·

سرته كلماتى ، ووافق ·

كانت الطيور تصرخ من فوقنا ، وبعض الغزلان تتحرك بعيدا عنا ، وكانت نباتات الخلنج الحمراء تنمو فى أماكن متفرقة من الأرض البور ، التى أحرقت النيران بعضها ، كما توجد مساحات شاسعة من مسابخ الوحل والماء · وكانت تحيط بها قمم الجبال من كل جانب ، فأخذنا نتحرك فى الأجزاء الضحلة من الأرض البور التى تنحرف بنا أحيانا بعيدا عن الشرق ، ثم كان علينا أن نعبر الأجزاء المسطحة المكشوفة · ونمشى محنيين أو نتحرك على بطوننا ، ونزحف من شجرة خلينج الى أخرى ، وكانت الشمس فظيعة الحرارة ·

وعند الظهر رقدنا فى أجمة كثيفة لننام · قام ألن بالمراقبة الأولى وقمت أنا بالثانية · لم يكن لدينـا ساعة ، لذلك ثبت ألن عصا من الخلنج فى وضع عامودى

فوق الأرض ، ووضع علامة على الأرض ناحية الشرق ، وقال لى أن أوقظه عندما يصل ظل العصا للعلامة ٠

وفجأة فتحت عينى ، فوجدت الشمس قد تحركت بعيدا عن العلامة ٠ شعرت بالخجل والخوف ، لقد نمت أثناء مراقبتى ٠ كنا فى خطر ، كان ذوو المعاطف الحمراء يتحركون نحونا من الجنوب الشرقى ٠ كانوا يركبون جيادهم عبر الأجزاء العميقة من أراضى الخلنج ٠

أيقظت آلن الذى نظر الى الجنــــود ، ثم الى جهة الشمس ٠ كان وجهه متجهما صارما ، ولكنه لم يتفوه بأى كلمة عتاب ، وقال مشيرا الى جبل فى الشــــمال الشرقى :

ـ علينا بالجرى ، فلنتجه نحو بن أدلر ، انه جبل أجرد موحش ذو تلال وكهوف ، واذا وصلناه قبل الصباح فقد ننجو ٠

فصرخت :

ـ ولكن ، سيؤدى ذلك بنا عبر طريق الجنود ٠

فقال :

ـ أعرف ذلك ، لكن اذا عدنا الى أبين ، فسنكون فى عداد الأموات · أسرع يا ديفيد !

تحرك بسرعة على يديه وركبتيه ، وأخذنا نسير متعرجين فوق أغوار الأرض البـــور ، وتغطت وجوهنا بالغبار وأجسامنا تؤلمنا ، وكنا نســـمع من حين لآخر صوت أجنحة ·· طائر أزعجناه ينطلق الى أعلى من بين شجيرات الخلنج ·

لم يشاهدنا الجنـود انتشروا فغطوا مســاحة ميلين · اذا ظللت نائما مدة أطول لكانوا قد لحقوا بنا ·

تقيحت يداى . وأحسست بالغبار فى عينى وفى فمى وفى حلقى ، وقلبى ينفطر · وخوفى من ألن هو فقط الذى جعلنى أستمر · كان وجهه أحمر ويتنفس بصعوبة، ولا يزال يرتدى معطفه الفرنسى الثقيل . ورغم ذلك كانت روحه عالية ومســـتمرا فى الجرى · لقد أعجبت بقوته وبسالته ·

وأخيرا أقبل الليل ·· نظرنا خلفنا ، فرأينا ذوى

المعاطف الحمراء · لقد توقفوا ليعسكروا وسط الأرض البور ·

وتوسلت لألن لكي ننام قليلا ، لكنه رفض ، فقلت أنني لا أستطيع السير · **فقال :**

ـ حسن جدا ، اذن سأحملك

فخجلت وقلت :

ـ تقدم وسأتبعك ·

كانت ليلة صيف بلا غيوم ، وكان الهواء عليلا . وعشت الساعات طوالا وأنا أشعر بآلامى المبرحة في كل خطوة أخطوها ·· كرهت ألن ، لكنى كنت أطيعه · كان جنديا وقادنى كأحسن قائد ·

كنا نسير صامتين ، عندما بزغ النهار ، وكنا أحدبين كالأجداد الهرمين ، ووجوهنـــا شاحبـــة ، و لانقدر على الكلام · كنا نضع قدما ونرفع أخرى لا غير ، ولا نراقب الطريق ، فالتعب يحول بيننا وبين القيام بأى حركة ·

وفجأة ، قفز ثلاثة أو أربعة رجال من شجيرات الخلنج وهاجمونا بخناجرهم ، وطرحونا أرضا ·· !

سمعت ألن يهمس بالغيلية مع أحد الرجال ، فرفع الرجال خناجرهم عن حناجرنا ·

وقال الن :

ـ انهم من جماعة كلونى ·· نحن محظوظان · انهم حراسة ، وسيبعثون برسالة لرئيسهم ·

فصرخت :

ـ ماذا ! هل كلونى مازال هنا ؟

كان كلونى ماكفرسن ، أحد الزعماء المتمردين منذ ست سنوات · وكان هناك ثمن مقابل حياته · كنت أعتقد أنه قد هرب لفرنسا ·

قال الن :

ـ انه مازال فى بلده ، وجماعته تحرسه ·

ثم تدحرج وذهب فى النوم ، لكننى لم أستطع عمل ذلك · كان رأسى مليئا بالضجيج وجسمى

يؤلمني ، فأخـذت أنظر الى حراس كلوني الشرســين وانصت الى كلامهم الغيلي ، ولم أستطع أن أرتاح •

عاد تابع كلوني حاملا كلمات ترحيب ، وأصـبح الن قويا بعدما أخذ قســطا من الراحة ، أما الآن فلم أستطع المشي • فحملني رجلان وســارا بي عبر كثير من الوديان والتجاويف المظلمة ، وأخيرا وصلنا الى مركز بن ادلر •

الفصل السادس والعشرون

عش كلونى

عثرنا على عش كلونى فى مكان مرتفع على جانب الجبل • كان مأوى صغيرا عجيبا يشبه عش طائر • لقد بنى من الأشجار ، ويمكن أن يخفى خمسة أو ستة رجال فيه • ويستخدم كلونى هذا المكان السرى عندما لا يكون ذوو المعاطف الحمراء قريبين • واذا جاءوا ، كان يتحرك الى كهف من الكهوف •

نهض كلونى للترحيب بنا ، كانت ملابسه فقيرة ، ولكن له خصال ملك •

وقال :

– أن منزلى شظف ، لكنى استضـفت أحد أفراد

الأسرة الملكية هنا · يمكنكم حدس اسمه · سنحتسى شرابا ثم نتناول عشاءنا فيما بعد ·

كان لكلونى حياة غريبة ، فعادة ما كان وحيدا يخاطب خدمه وحراسه فقط ، ويأتى حلاق كل يوم يمده بأخبار البلدة · وأحيانا يستقبل فى الليل بعض الزائرين كزوجته أو بعض الأصدقاء · لقد جردته الحكومة من سلطته ، لكن رجال عشيرته مازالوا يطيعونه ، ويأتونه لفض جميع منازعاتهم ، ويرتجفون عندما يغضب ، ومع ذلك فهذا الزعيم الهايلاندى يعتبر خارجا عن القانون · وكانت الجنود تبحث عنه فى كل مكان ، وأحيانا يكونون على بعد ميل واحد فقط ، يمكن لأى فقير فى جماعته أن يفوز بمكافأة كبيرة اذا بلغ عن مكان عشه ، لكنهم جميعهم كانوا مخلصين لزعيمهم ·

شربت كأس البرانـدى التى أمامه ، فأعـاد لى بعض قوتى ، وكان يوجد لحم غزال للعشاء ، لكنى لم أستطع أن آكل الا القليل · وبعد العشاء أحضر كلونى ورق اللعب واقترح أن نلعب · كان أبى قد علمنى أنه من الخطأ اللعب مقابل نقود ، فماذا أفعل ؟



وبعد العشاء احضر كلونى ورق اللعب

كان وجهى محتقنا باللون الأحمر ، وأخبرت كلونى وألن بأننى لا ألعب الورق · كان كلونى يخلط الورق فتوقف قائلا :

ـ ما هذا ؟ ما هذا الكلام الهويجى فى منزل كلونى ماكفرسن ·

فقال الن :

ـ مستر بالفور ، شاب شريف شجاع ، ولكنه متعب · يجب أن ينام · واذا لم يكن يحب لعب الورق ، فلا يمنع هذا من أن نلعب نحن · وأنا مستعد يا سيدى لأى لعبة ·

قال كلونى :

ـ سيدى ان ضيوفى أحرار · واذا كان هو أو أنت أو أى شخص لا يحب منزلى ، فسأتركه له ·

ولم أرغب فى مشـــاجرة بين صديقين من أجلى فقلت :

ـ سيدى ، اننى متعب جدا فى الحقيقة ، بالاضافة

الى أنه وعد لأبى قطعته على نفسى ، وستفهم ذلك اذا كان لك أبناء .

فاجاب كلونى :

ـ لا تكثر فى الكلام .

وأشـار الى فراش من الخلنج ، لكنه لم يرتح لكلماتى ، ورمانى بنظرة مروعة .

رقدت وكأنى فى حلم . كان رأسى ثقيلا وغريبا .. وكنت أستيقظ أحيانا فألاحظهم يلعبون ، وأحيانا أسمع أصواتا فقط ، وأظن أننى صرخت عدة مرات . لم أكن أحلم بكابوس معين ، لكنى شعرت بذعر عام من المكان. كرهت الفراش ، والأصـوات ، والنـار ، وكرهت نفسى .. !

ومر الوقت وعرفت أننى مريض . جـاء الحـلاق ـ الذى كان طبيبا أيضا ـ ليعطينى علاجا .. كان يتكلم الغيلية فقط ، فلم أفهم شيئا .

وفى تلك الأثناء كان آلن وكلونى يلعبان . أعتقد

أن ألن كان فائزا فى البداية ·· أذكر أننى جلست مرة ، ورأيت ستين أو مائة جنيه على المائدة أمامه ·

وفى اليوم الثانى كان سيء الحظ · وعند الظهر أيقظونى وأعطونى مزيدا من العلاج · وكانت الشمس تسطع من الباب المفتوح ، وتؤذى عينى ، وانحنى ألن فوق سريرى ووضع وجهه ملاصقا لوجهى ·

وقال :

ــ هل تعيرنى نقودك يا ديفيد ؟

قلت :

ــ لماذا ؟ لا أفهم ·

قال :

ــ أوه ، ديفيد ، لا تخزل صديقك ·

كنت مصابا باعياء والحمى مرتفعة ، ولم أكن قادرا على التفكير · وشعرت بأنه يجب أن أبعد وجهه عن وجهى · وهكذا أعطيته النقود ·

وفى اليوم الثالث كنت فى حالة أفضل ·· كنت

ضعيفا ، ولكن ذهني كان صافيا ٠٠ كنت جائعا وأكلت للمرة الأولى ٠ ومشيت وجلست عند باب العش ٠

وعندما عدت للداخل مرة أخرى ، كان ألن وكلوني يستجوبان أحد الخدم ، والتفت كلوني نحـــوى وتكلم بالغيلية ٠

فقلت :

ـ انني لا أستطيع فهم الغيلية يا سيدى ٠

وبسبب لعب الورق ، كان كل شيء بخصـــوصى يجعل كلوني غاضبا ، فقال بالانجليزية :

ـ ان اسمك له معنى أكثر منك نفسك ، فهـــو غيلي ٠ يقول حراسى ان الطريق خال ٠ هل لديك القوة على الرحيل ؟

رأيت أوراق اللعب على المائدة بدون ذهب ، وكان لألن نظرة غريبة آثمة ٠

فقلت :

ـ لا أعرف عن قوتي شيئا ، لكن نقودنا القليلة يجب أن تحملنا مسافة طويلة ٠

وكان ألن ينظر الى الأرض ،

وقال اخيرا :

ـ لقد خسرتها يا ديفيد . هذه هى الحقيقة .

فسألت :

ـ **ونقودى أيضا ؟**

فقال الن :

ـ ونقودك أيضا ، لماذا أعطيتها لى ؟ اننى أصبح أحمق عندما ألعب الورق .

فقال كلونى :

ـ **انها لعبـة فقط ،** طبعا ستستردون نقودكم وضعفها ، اذا أحببتم . وأخرج ذهبا من جيبه ، وكان وجهه محمرا ، ولم يقل ألن شيئا ،

فقلت :

ـ سيدى ، انك كريم جدا ، وأشكرك .

فقال كلونى :

ـ هراء ! هذه عادة سيئة . لكن ماذا أفعل ؟ فان

حياتى هنا كئيبة · وأنا وحيد أياما كثيرة فى هـــذا القفص ، وعندما يأتى أصدقائى ألعب معهم ، واذا خسروا فلا أتوقع ـ

وهنا توقف ،

فقلت :

ـ نعم ، اذا خسروا تعيد لهم نقدهم ، واذا كسبوا يحملون نقودك معهم ·· انك كريم ، ولكنه موقف صعب على الضيوف ·

كانت هناك فترة صمت قصـــيرة ، وازداد وجه كلونى فيها احمرارا ·

فقلت :

ـ اننى شاب ، وأسألك النصيحة ·· انصـحنى كوالد ·· خسر صديقى هذه النقود فى لعب نظيف · فهل أقبل استرداده ثانية ؟ هل هذا صواب يمكنك أن ترى ، انه لموقف صعب على كبريائى ·

قال كلونى :

ـ أنه صعب على أيضا يا مستر بالفـــور · فأنا

لا أدعو أناسا فقراء لمنزلى لصيدهم ·· أنا لا أهين أصدقائى وسوف لا أقبل اهانة · وكان غاضبا ·

فقلت :

ــ يمكنك أن ترى يا سيدى ، ان لى بعض الحق بجانبى ·· ليست لعبة الورق بالعادة الحسنة للسادة المحترمين ·· لكنى منتظر اجابتك ·

أعتقد أنه كرهنى جدا ·· لكنه تذكر أننى صغير ، كان موقفا صعبا لى ، وتصرف هو بشكل جيد ،

وقال :

ــ مستر بالفور ، أعتقد انك فريد ·· انك هويجى ، ولكنك لديك روح جنتلمان شجاع ، وبكلمة شرف منى · فلتأخذ النقود ، وهأنا أمد لك يدى ·

الفصل السابع والعشرون

المشاجرة ..

غادرنا فى الليل، وقام أحد رجال كلونى بارشادنا للطريق ، وحمل ألن متاعنا .. وأخذنا أولا عبر بحيرة ايرخت ، ثم الى مأوى آخر .

كنت ما زلت ضعيفا بسبب الحمى ، ومشينا لفترة طويلة فى صمت . كنت غاضبا ومعتدا بنفسى ، وكان ألن غاضبا وخجلا .. خجلا لأنه خسر نقودى ، وغاضبا لأننى غاضب منه ، وفكرت فى أن أنفصل عنه. لماذا لم يقل ألن حتى الآن :

ـ اذهب ، فان مصاحبتى خطر عليك !

كنت أعرف أنه يحبنى ، **ولم أستطع أن أقول له :**

ـ انك فى خطر كبير ، وأما أنا فلا ٠٠ فلتذهب بمفردك ٠

وتصرف ألن كطفل سيء ٠ لقد اقترض نقودى عندما كنت مريضا بالحمى ٠٠٠ خجلت من أفكارى ، ولم أقل شيئا ، وأخيرا لم يستطع ألن أن يتحمل الصمت ، فقال :

ـ ديفيد ، لا يجب على الصديقين أن يتشاجرا بسبب حادث بسيط ٠ يجب أن أقول لك آسف ٠ اذا أردت أن تقول شيئا فقله الآن ٠

قلت :

ـ أوه ٠ ليس لدى ما أقوله ٠

فارتعش صوت ألن قائلا :

ـ ولكنى اعتذرت يا ديفيد ٠

فقلت بصوت فاتر :

ـ اننى أعاتبك ٠

فاستفسر :

ـ أيجب أن نفترق ؟ لقد قلت ذلك مرة من قبل ، هل تقولها ثانية ؟ لن أبقى اذا لم تردنى •

ذكرتنى كلماته بأفكارى التى أسررتها فى نفسى ، ولم أستطع تحملها • فصحت :

ـ ألن بريك ! هل تظن أنى أدير ظهـــرى نحوك الآن • اننى لا أترك أصدقائى وقت الشدة • **حقيقى** ، اننى سقطت نائما فى الأرض البور ، لكننى كنت متعبا ، فيجب أن لا تلومنى على ذلك •

فقال الن :

ـ لم يحدث هذا مطلقا •

قلت :

ـ علاوة على ذلك ، فلا أستطيع أن أنسى الأشياء التى بيننا حتى لو استطعت أنت •

فقال الن بهدوء :

ـ سأقول هذا فقط : اننى مدين لك بحياتى لمدة

طويلة ، والآن مدين لك بالنقود · فيجب أن لا تصعبها على · أعرف اننى كنت أتصرف بشكل سىء ··
جعلنى ذلك غاضبا مع نفسى ، وجعلنى قاسيا ·

فقلت :

ـ اذن ، دعنى أتكلم · انك توافق على أنك قد آذيتنى ، وكان على أن أتحمل الاهانة ، ولكننى لا ألومك ·· أيجب اذن أن أضحك وأغنى إزاءها ؟ أيجب أن أركع وأشكرك عليها ؟ تقول انك أخطأت ، لماذا تبدأ مشاجرة حولها الآن ·

قال الن :

ـ حسن ، يكفى هذا ·

سرنا مرة ثانية فى صمت ، وفى اليوم التالى ، أخذنا رجـل كلونى عبر بحيرة رانوخ ، ثـم تركنا ، وأخبرنا أن أفضل طريق لنا عبر بلدة كامبل · فلا أحد يبحث عنا هنـــاك ، ولم يحب الن ذلك لكنه وافق أخـــيرا ·

سافرنا طوال ثلاث ليال ، فوق جبال موحشة ،



وكنا ننام أثناء النهار بين شجيرات الخلنج

و لنا ننام بالنهار فى وسط شجيرات الخلنج · وكانت السماء تمطر طوال الوقت ، مع وجود ضباب أيضا · وكثيرا ما كنا نضل مسيرنا الصحيح بسبب رداءة الرؤية · وكان طعامنا الطحين والماء ، وقطعة لحم باردة من كلونى ، ولم نستطع أن نشعل نارا مطلقا ، وملابسى لم تجف أبدا · وكان حلقى محتقنا جدا مع ألم حاد فى جانبى · وعندما كنت أنام فى هذا البلل كنت أحلم أحلاما مزعجة · رأيت ثانية أسوأ مواقف لمغامراتى : برج منزل شوز فى البرق ·· البحارة مع غلام السفينة رانسوم الميت ·· شوان وهو يموت على أرض القمرة ·· كولن كامبل ممسكا بمقدمة سترته ···

لم نتكلم الن وأنا طوال هذا الوقت كالأصدقاء ، فى الحقيقة ، كنت مريضا جدا ، علاوة على أننى لا أنسى بسهولة · كانت طبيعتى مختلفة جدا عن طبيعة ألن · كنت بطيئا ، وهو كان سريعا ·· لم أكن أتشاجر بسهولة ، لكنى لا يمكن أن أنسى بسهولة أيضا ·

ولمدة يومين كان صاحبى رقيقا وصبورا ، يعتقد

أنى يجب أن أشفى من أفكارى الغاضـــبة · وكنت لا أنظر اليه ، وأرفض مساعدته ·

وفى الصباح الباكر من اليوم الثالث ، وصلنا الى تل مكشوف ليس به أى ساتر ، فلم نستطع أن نرقد أو ننام · كان الن مضطربا ، **ونظر الى وقال مرة أخـرى :**

ـ دعنى أحمل صرتك ·

فقلت :

ـ لا ، شكرا ·

كان وجهه مغبرا **عندما قال :**

ـ لن أعرض عليك مـرة أخـرى ·· اننى لست برجل صبور ، فهذه ليست طبيعتى ·

فقلت كالطفل :

ـ اعرف ذلك ·

وتغير منذ ذلك الوقت ، أخذ يصفر ويبتسم ، وأخـــذ يمشى بخيلاء ويناديني : هويج ، وأســـماء

أخرى . وذكرني بخوفي من القفز . أعرف أنها غلطتي لكني كنت متعبا وهـــزيلا ، ولا أستطيع أن أكون آسفا . كان الطقس جميلا وجافا الآن . لكني كنت أشعر بريح شديدة تهب على جسمي . اعتقدت انني لن أستطيع جر نفسي أكثر من ذلك ، لابد أن أرقد فورا ، ويجب أن أموت على هذه الجبـــال كثعلب أو خروف ، وفكرت كالطفل :

ـ سيأسف الن عندما أموت .

سقطت مرة ، وهذا أزعج ألن ، ونهضت بسرعة مرة أخرى ، ونسى هو حالا . كنت فى لحظة ساخنا ، وأخرى باردا وأرتعش ، ولم أعد أحتمل الوجـع فى جانبى . وأحسست أخيرا بالنهاية قادمة ، فعلى أن أثير مشاجرة غاضبة واحدة مع ألن ، ثم أنهى حياتى . نعتنى ألن فى هذه اللحظة قائلا ثانية (هــويج) ، فوقفت وقلت :

ـ مستر ستيوارت ، انك أكبر منى ، ويجب أن يكون سلوكك أفضـــل من ذلك فالسادة المحترمون

لا يهينون أصدقاءهم لأن أفكارهم مختلفة . من فضلك تكلم باحترام عن ملكى ، وعن الكامبليين أصـــدقائى الطيبين .

توقف ألن ويداه فى جيوبه ، وابتسم ابتسامة شريرة ، وأخذ يصفر لحن جيمسى ، **وقال :**

ـ أنا سيتوارت .

فأجبت :

ـ نعم ، أعرف انك تحمل اســـم ملك . أنت تخبرنى بذلك دائما . لقد رأيت كثيرا من السيتوارتيين فى هايلاند معظمهم كانوا قذرين !

فقال ألن بهدوء :

ـ هل تعرف بأنك تهيننى .

فواصلت حديثى :

ـ دعنى أضيف شـيئا .. فكـل من الكامبليين والهويجيين قد هزموكم فى القتال ، وفررتم أمامهم ، فهم أحسن منكم !

وقف ألن بلا حراك ٠

وقال :

ـ شيء يرثى له ، لا يستطيع الانسان أن يغفر أشياء معينة ٠

قلت :

ـ كلا ، أنا مستعد ٠

وسحبت سيفي فصرخ :

ـ ديفيد ، هـــل أنت مجنـــون ؟ لا أستطيع مقاتلتك ٠ انها جريمة قتل ٠

قلت :

ـ انك أهنتني ٠

فصاح ألن :

ـ صحيح ٠

وسحب سيفه ببطء ، ثم القاه بعيدا وسقط على الأرض ٠

وصرخ :

ـ لا ! لا ! لا أستطيع ! لا أستطيع !

وفجأة ، تركتنى جميع أفكارى الغاضبة • كنت مريضا ، آسفا ، ومندهشا من نفسى فقط لا غير • أوه ، لقد تفوهت بكلمات قاســـية ! وتذكرت كلمات ألن العطوفة ، وبسالته ومساعدته الصبورة فى أيامنـا الذميمة • لقد أهنته ، لقد فقدت صديقى الشجاع الى الأبد ، ولا يمكن لأى اعتذار أن يزيل كلماتى • ربما فقط صرخة استنجاد تعيده لى ، وتنسينى كبريائى •

وتكلمت :

ـ ألن ، اذا لم تستطع أن تساعدنى ، فيجب أن أموت هنا •

اعتدل جالسا ، ونظر الى فى دهشة •

فقلت :

ـ لا أستطيع أن أخطـو خطـوة واحدة • دعنى أذهب لأحد المنازل ، لأموت فى يسر هناك •

فاستفسر آلن :

ــ أيمكنك المشى ؟

قلت :

ــ لا ، الا ببعض المساعدة ، فساقاى ضعيفتان ، ولا أقدر على التنفس ٠٠ اذا مت ، فهــل ستغفر لى يا آلن ؟ لقد أحببتك ، حتى عندما كنت غاضبا ٠

فصاح آلن:

ــ لا تقل هذا يا ديفيد ، دعنى أسندك بذراعى ٠ هل هذا أسهل ؟

قلت وانا اضغط ذراعه بيدى :

ــ نعــــم ٠

فقال :

ــ ديفيــد ، اننى أحمــق ، وليس لدى حسن ادراك ٠ أننى أفهم انك ما زلت فتى ، ولم أدرك بأنك تموت على قدميك ٠٠ ديفيد ، حاول أن تسامحنى ٠

فقلت :

ـ أوه ، فلنتوقف عن الكلام فى هذا الموضوع · ما الذى جعلك طيبا معى الى هذه الدرجة يا ألن ؟

فقال ألن :

ـ لا أدرى ، لقد أعجبت بك ، لأنك لم تتشاجر أبدا ، والآن أعجب بك أكثر ·

الفصل الثامن والعشرون

زمار القرب

عثر الن على منزل ، فطرق الباب ، رغم أن ذلك شيء ليس مأمونا ، لكنه فعل ذلك من أجلي ، فلا يوجد في هذا الجزء من البلاد عشيرة مناصرة كبيرة وانمـــا كانت هناك عائلات هايلاندية صغيرة مختلفة ، بعضـــهم أصدقاء ، وبعضهم الآخر اعداء . فهناك آل ماكلين وهم يتبعون زعيم ألن في الحرب ، كما يوجـــد أيضـــا آل مكجريجور ، ولهم سمعة سيئة ، ولا أحد يحبهم .

كنا محظوظين ، فالمنزل كان يخص دنكان ، وهو من آل ماكلين . وكان يعرف الن ، فرحب بنا ... ووضعتني زوجتـــه في السرير ، وارسلت للطبيب :

كنت مريضا جدا ، ولم استطع الحركة لمدة أسبوع . لكننى كنت شابا قويا .. فى شهر استرددت قواى .

لم يتركنى الن طوال هذه المدة . كان يختبىء فى غابة صغيرة ، ويخرج منها كل ليلة ليزورنى .. وكنت سعيدا عندما كان يأتى .

كان لدى دنكان مزامير القـــرب بالمنزل ، وكان يحب الموسيقى ، وعندما تحسنت صحتى ، قضينا ليالى مرحة كثيرة مع موسيقى مزامير القرب .

لم يعثر علينـــا الجنـــود ، ولم يأت الشريف لاستجوابنا ، رغم أن جميع الناس يعرفون أننى هناك، وكان معلقا بالقرب من سريرى منشور يصفنى بوضوح كما انى جئت مع ألن فلابد أنهم ادركوا اننى صـــبى الأراضى المنخفضة ، لقد غيرت ملابسى ، لكننى لا أستطيع تغيير سنى أو شخصى .

ففى العشيرة يعرف كل واحـــد الحقيقة ، لكنهم لا يخبرون أحدا . وكانوا طيبين نحوى .

ووقع حادث هام عندما زارني روبن اويـــج من آل ماكجريجور . رآه دنكان قادما فأخبرني بسرعة . كان ذلك قرب الليل ، ونتوقع مجيء ألن ، فجعلنا ذلك مضطربين ، لأنهما أعداء .

دخل روبن بخيلاء ، والقى بتحية المساء على آل ماكلين ، ثم جاء الى سريري وقال :

ــ أسمع بأن اسمك بالفور ، وكان أخي جريحــا عام ١٧٤٥ ، فأنقذ ساقه طبيب باسم بالفور ، اذا كان قريبا لك ، فسأفعل أى شيء من أجلك .

انى لا أعرف الكثير عن عائلتى ، فخجلت وقلت لا أدرى . وتأسف روبن أنه جشم نفسه الطـــريق ، وادار ظهره نحوى ، ولم يلق السلام ..

فى هذه اللحظة ســـمعنا ألن قادما .. والتقى الرجلان عند الباب .. نظــر ألن الى روبن .. ونظــر روبن الى ألن . كانا مثل كلبين غريبين . كان كلاهمــا صغير الحجم ، وكلاهما مختالا بنفسه ، ويمتشق كل منهما سيفا .. ووضع كل منهما يده على سيفه ، ثم

قال روبن :

ـ انك مستر ستيورات على ما اعتقد .

فاجاب الن :

ـ تماما يا مستر مكجريجور ، فأنا لا أخجل من اسمى .

فقال روبن :

ـ لم أكن اعلم انك فى بلدى يا سيدى .

فاجاب الن :

ـ اعتقد اننى لست فى بلدك يا سيدى ، انا فى بلد اصدقائى آل ماكليرن .

فقال روبين :

ـ اشك فى ذلك ، لكنى أظن أنك رجل سيف .

فقال الن :

ـ انى كذلك ، يا سيدى ، ولست الوحيد فى أبين

فقريبى القبطان اردشيل حارب ذات مرة جنتلمان يحمل اسمك ، ولا أظن أن مكجربجور قد فاز •

فسال روبين :

ـ أتقصد أبى ؟

قال الن :

ـ ربما ••

فاجاب روبن

ـ ابى كان رجلا عجـــوزا ، والنزال لم يكن متكافئا •• يمكن أنت وأنا أن نكون ثنائيا أفضـــل يا سيدى •

قال الن :

ـ كنت أفكر نفس التفكير •

نهضت من السرير •• ووقـف دنكان بجوارهما متأهبا •• كنا نراقب لمنع القتال ، والآن اصبح القتال على وشك أن يحدث •• وتدخل دنكان بوجـــه باهت وفرق بينهما قائلا :

ـ يا سادة ، اننى كنت أفكر فى شىء آخـر ٠٠ ها هى مزاميرى ٠٠ كلاكما زمار مشهود له ٠٠ لكن من هو الزمار الافضل فى الاثنين ؟

فلنحتكم الآن ٠

فقال الن ، ولا زال ينظر الى روبن :

ـ لماذا سيدى ، ايمكنك العزف ؟ هـــل انت زمار ؟

فأجاب روبين :

ـ زمار خبير ٠

قال الن :

ـ هذه كلمة جسورة جدا ٠

فقال روبن :

ـ لقد برهنت على ذلك ، قبل الآن وأمام رجـال أفضل منك ٠

قال الن :

ــ فلنحاول اذن ٠

أحضر دنكان مزاميره بسرعة ٠٠ وقدم للرجلين طعاما ، وشرابا ٠٠ جلس العدوان وهما يتفوهان بكلمات مؤدبة ٠٠ أكلا وشربا قليلا ٠٠ وكانا على شغا عراك ٠٠ ثم أخذ روبين المزامير ، وعزف لحنا راقصا مرحا ٠

فقال الن :

ــ نعم ، تستطيع النفخ ٠

وأخذ الآلة الموسيقية ، وعزف نفس الموسيقى ثم كرر اللحن بطرق مختلفة ، وزينها بأنغام صغيرة خفيفة ٠

سرني عزف روبن ، لكن عزف ألن كان أفضل ٠
وقال روبن :

ــ هذا ليس بسيء يا مستر ستيوارت ، لكني



اعطني المزامير ..

لا أحب هذه النغمات الاضافية القصيرة ، فهى لا تحسن اللحن !

فاندفع الدم الى وجه آلن ، وصــاح واضعا يده على سيفه :

ــ انك تكذب !

فقال روبن :

ــ حيث اننى هزمتك فى العزف ·· أيجب عليك أن تتحول الى السيف ؟

فقال آلن :

ــ حسن مستر مكجريجور ·· ســـأقبل الكذبة حاليا ·· ويحكم بيننا دنكان ·

فقال روبن :

ــ دنكان لن يحكم ·· نفسك هى التى تحكم ·· حقيقى انك زمار ماهر كستيوارت ·· اعطنى المزامير ··

اعطاه ألن المزامير ، فكرر روبن موسيقى ألــن ،

وصحح بعض أجزاء منها . ثم بدأ ثانية فى استخدام نفس اللحن ، لكنه زينه بطريقة حذقة بارعة جدا . فاندهشت لفنه .

كان وجه ألن متجهما عندما جلس وهو يجز على أصابعه ،

ثم قال :

– كفى ! يمكنك عزف المزامير .. والآن دعنا نحاول شيئا آخرا ..

وقام للقتال ..

رفع روبن يده وطلب الصمت .. وبدأ مرة أخرى .. لعب لحنا بطيئا فى هذه المرة .. كانت قطعة موسيقية نبيلة رائعة ، وعزفها جيدا .. ثم عزف لحنا يفضله الستيوراتيون ، ويعتبره ألن من أفضل الالحان ..

وعندما سمع النغمات الاولى .. تغير وجهه .. وعندما كرر روبن اللحن بسرعة أكثر .. تحرك ألن مع

الموسيقى ·· وعندما أنهى روبين العزف ، لم يستطع ألن أن يكون غاضبا · كان يفكر فى الموسيقى فقـط ، وقال :

—روبين أويج ·· انك زمار عظيم ! انك افضـل منى كثيرا ·· واعتقد أننى أفضل فى السيف منـك ، لكننا اذا تنازلنا ، فلا استطيع ان أقتل زمارا عظيمـا مثلك ·

وانتهت المشاجرة ، وأخذوا يعزفون ، ويأكلون ، ويشربون طوال الليل ·· ولم يذهب روبن الى بيتـه الا فى الصباح ··

الفصل التاسع والعشرون

الجسر ..

كنا فى أواخر شهر أغسطس عندما تركنا آل ماكليرن ، وكنت قد شفيت تماما .. فالجـــو دافىء وجميل ، وأصبح لدينا بعض النقود ..

سرنا بالليل ، وسافرنا باتجاه الجنوب الشرقى. فى اليوم الأول نمنا فى منزل ماكليرن آخـــر ، كان صديقا لدنكان ، وفى اليوم الثانى نمنا فى خليج جاف دافىء . وفى الصباح الثالث نظرنا من قمة التل الى أسفل ، فرأينا تحتنا مدينة ستيرلنج ، وقلعتها القابعة فى السهل ،

وقال الن :

ـ والآن ، هأنت تعود الى بلدك مرة أخرى · واذا عبرنا نهر فورث فسنكون آمنين ·

تصب مياه « اللان » فى النهر الكبير ، ووجدنا بالقرب من هذا المكان جزيرة صغيرة فيها شجيرات خفيفة · فأقمنا فيها معسكرنا حيث يمكننا رؤية قلعة ستيرلنج ، ونسمع قرع طبول جنودها ، والرجال العاملين فى الحقول ، وكنا نستطيع أن نسمع حتى كلماتهم ·· ورقدنا صامتين · كان الجو دافئا ولدينا الطعام والشراب ·· وظننا أن قلقنا قد أوشك على الانتهاء ·

وعند الغروب عاد الرجال الى بيوتهم من الحقول، وخضنا نحو الشاطىء ، وتحركنا بسرعة تحت أسوار الحقول ·

وكان الجسر يقع تحت تل القلعة ·· كان جسرا عتيقا مرتفعا ضيقا ، ولم يكن القمر قد ظهر بعد ·· وأضيئت بعض الانوار ، ولكن كل شىء لا يزال هادئا · ولا توجد أى اشارة تدل على وجود حراسة على الجسر ·

وفكرت ان نعبر فى الحال ، ولكن ألن كان احكم ، **اذ قـال :**

ـ انه هادىء جدا ·· لكننا سنرقد هنـــا خلف الحائط ، يجب أن نكون حريصين ·

رقدنا هناك مدة ربع ساعة ، واخيرا جاءت امرأة عجوز ، ومعها عصا ، وكانت تسعل ، وتحركت ببطء فوق منحنى الجسر ، وسمعنا صوت خطـــواتها ، وعصاها ، وسعلتها وهى تبتعد ·· وتبتعد ··

فهمست :

ـ لابد أنها عبرت الآن ·

فاجاب ألن :

ـ لا ، ان خطواتها لها صوت أجوف ·· أنهـــا ماتزال فوق الجسر · **عندئذ صرخ صوت :**

ـ من يمشى هناك ·· ؟

وسمعنا صوت البندقية الحاد على الحجارة · كان الحارس نائما ، واستيقظ الآن ·· وضاعت فرصتنا ·

وقال الن :

ـ هذا ليس مفيدا لنا ·

وبدون أى كلمة أخرى ، زحف بعيدا عبر الحقول فتبعته ، ثم نهض على قدميه ، وأخذ يمشى على طـول الطريق · كان متجها الى الشرق ·

لقد خيبت ظنى تلك الأمسية · كنت أظن أننى سأذهب الى منزل مستر رانكيلور لاطلب مـيراثى ، والآن مازلت مختبئا من القانون ·

قال الن :

ـ حسن ، لازال ذوو المعاطف الحمراء يراقبوننا ·· ظننتهم أغبياء ·· لكننى أخطأت ·

فسألت :

ـ لماذا ستذهب شرقا ؟

فاجاب ألن :

– انها مجرد فرصة ، فهم يراقبون النهر ، واذا لم نستطع المرور من الجسر ، يجب أن نحاول الذهاب الى النهر ٠

فقلت :

– لكن البحر أوسع من النهر يا ألن ٠٠ كيف يمكننا العبور ؟

فقال ألن :

– يمكننا استخدام زورق

فذكرته :

– ليست لدينا نقود ٠

فقال :

– سأجد طريقة ٠٠ اذا لم أستطع اقتراض زورق سوف آخذ واحدا ٠

– اذا عبرنا مصب النهر فسيصبح الزورق فى الجانب الخطأ ٠ سيلاحظون هذا ، ثم سيبحثون عنا ٠

فصاح ألن :

ـ اذا أخذت زورقا ، فسأجعل أى شخص يعيده

.. لا تجادلنى .. استمر فى المشى ، ودعنى أفكر .

ومشينا ، مرة أخرى ، خلال الليل ..

الفصل الثلاثون

الزورق

كنا فى الصباح متعبين جائعين ، عندما وصلنا الى قرية صغيرة بجانب البحر ، وتقع بلدة كوينز فيرى على الشاطىء المقابل . كان الدخان يتصاعد من البلدة ، ومن عديد من القـــرى والمزارع ، وكان الرجال يجمعون محصول الحقول ، وتربض سفينتان داخل المرسى ، وتروح الزوارق الصغيرة وتجيء . أطلت النظر الى التلال الخضراء المبهجة ، والى الناس المنهمكين فى عملهم .. انهـا بلدى ، وكنت سـعيدا بهـذا الاحساس .

كان منزل مستر رانكيـــلور يقع عند الشاطىء

الجنوبى بينما أنا بالشاطىء الشمالى ، ولا أزال فقيرا ، ولى ثمن مقابل حياتى ، كما أن لى رفيقا خارجا على القانون .

فصرخت :

ــ آه يا ألن ! هناك فى الجهة المقابلة ينتظرنى كل شىء ! تستطيع الطيور الوصول الى هناك ، وكذلك المراكب ،والجميع يذهبون هناك ما عداى أنا ..

وفى الساعة العاشرة ، ذهبنا الى حانة صغيرة واشترينا بعض الخبز والجبن من فتاة جميلة تخدم فيه .. ثم اتخذنا سبيلنا الى غابة بجانب شاطىء البحر ، لنأكل . كان ألن يشحذ ذهنه ، **عندما توقف فجأة ، وقال :**

ــ هل لاحظت الفتاة ؟

فقلت :

ــ نعم ، أنها جميلة جدا ، اليس كذلك ؟

قال :

ـ هل تعتقد هذا ؟ عظيم ‥ عظيم ‥

قلت :

ـ لماذا ؟

فابتسم ألن وقال :

ـ حسن ‥ آمل أن تأتينا بزورق ‥ ديفيد ‥ لابد أن تجعل هذه الفتاة تحبك قليلا ، وتجعلها تشعر بالاسى نحوك ‥ دعنى أخطط ‥ ثم حدق فى مليا **وأردف قائلا :**

ـ ان لديك نظرة حزينة ‥ نظرة شاب مريض ضعيف ، سيساعدنا ذلك ‥ تعال ، لابد أن نعود الى الحانة ‥ من أجل الزورق ‥

فأخذت أضحك ، وأنا الاحقه فى السير راجعين **الى أن قال :**

ـ ديفيد بالفور ‥ انت جنتلمان غريب عن

هنا ·· سيسليك هذا الدور · اذا كنت تحترم حياتى وحياتك ، فعليك أن تكون جادا ·· والآن سأمثل قليلا ، وعليك أن تساعدنى ··

قلت :

ـ حسن ، حسن ، سأفعل ·

عندما اقتربنا من القرية الصغيرة جعلنى آخذ ذراعه استند عليها ·· فتح باب النزل وهو يكاد يحملنى الى الداخل ·· اندهشت الفتاة لعودتنا ، ووضعنى ألن فوق كرسى ، وطلب كأسا من البراندى وأخذ يسقيه لى ببطء ، ثم يطعمنى لقيمات صغيرة من الخبز والجبن ·· وكان وجهه مضطربا ·· وجاءت الفتاة بالقرب منا ، وأخذت تراقبنا ، **ثم قالت اخيرا :**

ـ ماذا به ؟

فقال ألن بنبرة حزينة :

ـ ماذا به ! لقد سار مئات الاميال ، الولد المسكين ، لقد نام طول الوقت فى الخلنج المبلول ·

فقالت الفتاة :

ـ انه صغير على ذلك ..

فأجاب ألن :

ـ صغير جدا .

فقالت :

ـ كان يجب أن يركب حصانا

فصرخ ألن بحزن :

ـ من أين احصل على حصان ؟ هل اسرقه ؟

قالت :

ـ انى ارى انكم سادة أفاضل .

فأجاب :

ـ حسن ، قد نكون ، ولكننا لا نحمل نقودا .

كنت طوال الوقت أكتم الضحك ، واشعر بالخجل فى نفس الوقت .. فأنا لا أحب الكذب ، وأخبرت ألن أن يتوقف ، وأننى أصبحت أحسن ،

وجعل الخجل صوتى غليظا خشنا ٠٠ فظنت الفتاة أننى مريض ٠

وسألت :

ـ أليس لديه اصدقاء ؟

فاجاب ألن :

ـ لديه ، اذا استطاع أن يصل اليهم ٠٠ اصدقاء اغنياء ، وسرر مريحة ، وطعام جيد ، وأطباء ، ولكن هنا ٠٠ عليـه أن يمشى ويمشى ، ويرقد فى الخلنج

فسألت الفتاة :

ـ لماذا ؟

فاجاب ألن :

ـ يا عزيزتى ، لا أسـتطيع أن أخبرك ٠٠ ليس مأمونا ٠٠ لكنى سوف أصفر لك ٠٠

وصفر بنعومة جدا لحنـا « جيمسى » ٠ فقالت وهى تنظر من فوق كتفها :

ـ كفى !

فقال ألن :

ـ ارأيت ؟

صرخت الفتاة :

ـ وهو صغير على ذلك ..

ـ أنه كبير بما فيه الكفاية ..

وضرب ألن بأصابعه على مؤخرة رقبته ، قاصدا انى استطيع أن أفقد عقلى .

فصرخت :

ـ ياله من عار .

قال ألن :

ـ سيحدث ذلك ، اذا لم نعبر النهر .

فالتفتت الى الباب ، وركضت خارجة .. وفرح ألن بحيلته ، لكنى لم أحب ذلك ، فقلت :

ـ اسمع يا ألن .. لا استطيع تحمل ذلك ..

فأجاب :

ـ بل يجب ، ان لم تفعل ، فقد تهرب أنت ، أما أنا فسأموت .

فصرخت :

ـ هذا صحيح !

حتى صراخى نفعنا .. اذ عادت الفتاة ومعها طعام شهى .. وأخبرتنا بأننا يجب أن نأكل ولا ندفع شيئا .. فأبوها هو صاحب المنزل ، وهو ليس موجودا اليوم .. وجلست على المائدة المقابلة تلاحظنا ..

ثم قالت لألن :

ـ أظن انك تتكلم كثيرا ..

فقال ألن :

ـ نعم ، ولكنى اتكلم فقط للناس الطيبين .

قالت :

ـ لن ابوح بسركما ..

قال :

ـ لا ، أنا أعرف هـــذا .. لكن يمكنك أن تساعدينا .

فقالت وهي تهز رأسها :

ـ لا أستطيع ·

فقال ألن :

ـ اسمعى ، اذا امكننا أن نحصل عـلى زورق لعبور النهر الليلة ، ورجل كتوم طيب لارجاع الزورق لاصبحنا من الناجين · أما اذا لم نحصل على هـــذا الزورق ·· ونحن لدينا ثلاثة شلنات فى الدنيا ·· اين نذهب ؟ ماذا سنفعل ؟ لن نكون سالمين ابدا · سيشنقوننا · أعدك ! سترقدين فى فراشك الدافىء بينما نحن تحت المطر ·· ستتناولين طعامك بجانب المدفأة بينما هذا الفتى المريض المسكين يرتعـد فى البرد ·

ازعجت هــذه الفــكرة الفتاة ·· أيجب أن تساعدنا ؟ ربما نحن مذنبون فى احدى الجرائم ·· وهنا فكرت فى أن أخبرها ببعض الحقائق ،

فسألتها :

ـ هل تعرفين مستر رانكيلور من كوينزفرى ؟

فقالت :

ـ رانكيلور المحامى ·· نعم ! نعم ·

قلت :

ـ حسن ، يجب أن اعبر النهر لأقابله · انا لست مذنبا فى أى جريمة · اننى فى خطر ·· ؟ وأنا هويجى ، ومخلص للملك جورج ·

لم يستسغ ألن كلماتى الاخيرة ، لكن الفتاة كانت مسرورة · فقالت :

ـ هذا صحيح ·· مستر رانكيلور له اسم وشهرة طيبة ··

واخبرتنا ان نختبىء فى الغابة ، وقالت :

ـ ساجد طريقة ما لأعديكم عبر النهر ·

بقينا فى الغابة يوما واحدا ، وجاء زمار قرب، وتحدث معنا ، وسألنا أسئلة كثيرة ، اراد أن يعرف عملنا هناك · وظننا أنه سيتكلم عنا ، وأصبحنا قلقين عندما تركنا ·

وعندما جاء الليل ، ظهرت الانوار فى المنازل القرى .. ومرت الساعات ، ثم انطفأت الانوار الواحد تلو الآخر . وكانت الساعة الحادية عشرة .. وبدأنا نشعر بالقلق .. عندما سمعنا صوت المجاديف ..

نظرنا خارجا ، فرأينا الفتاة آتية فى زورق . لم تخبر أحدا عنا ، وتركت المنزل عن طريق النافذة ووالدها كان نائما ، وأخذت زورق أحد الجيران ، وجاءت بمفردها لتساعدنا ..

لم ترد أى ثناء ، وطلبت منا أن نسرع بدون كلام .. وجدفت بنا عبر النهر فى سكون .. ووضعتنا على الشاطىء ، ثم صافحتنا وجدفت عائدة . ووقف ألن على الشاطىء ، وهو يقول :

ـ انها فتاة جميلة جدا ، يا ديفيد ، فتاة جميلة جدا . اعتقد أنها بسيطة وطيبة ، كنت آسفا لأننا تحايلنا عليها بقصة ، وأملت الا تقع فى أى مشاكل بسبب عملها الطيب .

الفصل الحادى والثلاثون

حديثى مع المحامى

تركت ألن فى الصباح المبكر التالى · ومشيت فى الشـــارع الرئيسى لكوينزفيرى ، وكـان النـــاس يشعلون مدافئهم ويفتحون نوافذهم ، ويخرجون مـن منازلهم · كانت بلدة صغيرة حلوة ، وكنت خجـــلا من ملابسى القذرة الخشنة القديمة ·

مشيت ذهـابا وايابا ، وينظر الى ســــكان البلدة وهم يرتدون ملابسهم الانيقة · ماذا أفعل ؟ اننى هنا اخيرا ، ولكن آمالى قد ضاعت ·· !

ليس لدى أى اثبات واقعى بمطالبتى بأمـلاك عائلة شوز · بل لا استطيع أثبات أننى ديفيد بالفور

اننى فى حـــاجة الى وقت وليس لدى الوقت • لدى ثلاثة شلنات فى جيبى ، وعلى أن أساعد أحد الخارجين على القانون ليغادر البلاد بسرعة •

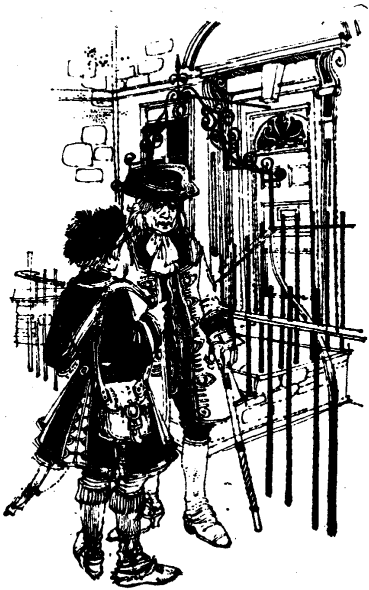
رأيت الناس يشيرون الى ويبتسمون ، وليست لدى الشجاعة الكافية لأسالهم عن منزل مســـتر رانكيلور • مشيت الشـــارع لنهـــايته ، ثم اتجهت للمرفأ ، وعدت اتجول من جديد • وحوالى الساعة التاسعة تعبت وهبطت معنوياتى •

توقفت بجانب منزل فخـم له نوافذ جميلة ، خرج منه رجل مهيب ضخم • كان وجهه يشع براعة وذكـــاء ، وفوق انفه نظارة ، فخيل الى أنه شـخص مهم • لاحظنى فى الحال ، **فتكلم معى مستفسرا :**

ــ هل تريد شيئا ؟

اعطتنى كلماته بعض الشجاعة فقلت :

ــ هل يمكنك ارشادى الى منزل مستر رانكيلور المحامى •• ؟



آنا مستر رانكيلور

فقال :

ـ لماذا ؟ لقد خرجت منه لتوى . أنا مستر رانكيلور .

قلت :

ـ سيدى . اسمح لى أن أتحدث اليك .

قال :

ـ انى لا أعرف اسمك ولا وجهك .

قلت :

ـ اسمى ديفيد بالفور .

أدهشته كلماتى .

وكرر بصوت عال :

ـ ديفيد بالفور ؟ ومن أين أتيت يا مستر ديفيد بالفور ؟

ونظر الى بحدة من خلال نظارته .

قلت :

ـ لقد أتيت من أماكن كثيرة غريبة . يمكننى

أن أخبرك بالكثير اذا لم نكن فى مكان عام ·

فوقف مفكرا للحظة ·

ثم قال :

ــ حسن · انه سيكون أفضل ·

وقادنى الى منزله ، ودخلنا الى غرفة صغيرة ، مليئة بالكتب والأوراق ، ثم جلس وقدم لى كرسيا · ونظر بحزن من كرسيه النظيف الى ملابسى القذرة ·

وقال :

ــ والآن · ان كان لديك أى كلام ، أرجو أن تقوله بسرعة ·

صعد الدم الى وجهى ·

ولكنى قلت :

ــ أعتقد بأن لدى الحق فى أراضى آل شوز ·

أخرج مفكرة من أحد الأدراج ، ووضعها على مكتبه

وقال :

ــ حسن ؟

لم أستطع الاستمرار ، ماذا أقول ؟ ‥ ولكنه قال لى :

— ابدأ ، ابدأ ، مستر بالفور يجب أن تستمر . أين ولدت ؟

فقلت :

— فى ايسندين يا سيدى فى عام ۱۷۳۳ الثانى عشر من مارس .

فنظر الى مفكرته .

وقال :

— والدك ووالدتك ؟

فأخبرته باسميهما .

فسألنى مستر رانكيلور :

— هل عندك أى أوراق ؟ هل تستطيع أن تثبت بأنك ديفيد بالفور ؟

فأجبته :

— ليس لدى أى أوراق يا سيدى ، لكنها عند

مستر كامبل القس بايسـنـدين • سوف يتعرف على
وأعتقد أن عمى سيفعل ذلك ، أيضا •
فقال :

ـ مستر ابنيزر بالفور ؟

ـ هو نفسه •

ـ هل رأيته ؟

ـ لقد استقبلنى فى منزله •

فسأل المحامى :

ـ هل قابلت القبطان هوسيسون ؟

قلت :

ـ نعم ، فى الحقيقة يا سيدى لقد دفع له عمى نقودا ليخطفنى قرب هذه البلدة •• لقد كنت قادما الى منزلك ، عندمـا دعانى القبطان الى سـفينته • وعلى ظهرها ، ضربت على رأسى ، ثم وضعونى أسفل السطح وأبحروا ، وكان سيأخذنى الى أمريكا ليبيعنى فى سوق العبيد • ولكن السفينة غرقت ، وبعون الله هربت من هذا الشر •

فسأل مستر رانكيلور :

ـ أين غرقت السفينة ·

فقلت :

ـ بجانب الطرف الجنوبى لجزيرة مول ، ووصلت الشاطىء على جزيرة ايريد ·

ونظر مرة أخرى الى مفكرته ·

وقال :

ـ آه ، كلماتك تتفق مع الحقائق هنا ، لكن السفينة غرقت في السابع والعشرين من يونيو ، ونحن الآن فى الرابع والعشرين من أغسطس · توجد فترة شهرين تقريبا ، كيف تفسر هذا ؟

أجبت :

ـ يجب أن أعرف أولا يا سيدى ، هل أنا أتكلم الى صديق ؟

فأجاب :

ـ لا أستطيع أن أكون صديقك ، اذا لم تخبرنى بكل شىء ، فعلى الصغير أن يثق فى من يكبرونه ·

قلت :

ـ لا تنس يا سيدى ، بأننى وثقت فى عمى ، والقبطان هوسيسون ، وأعتقد أن عمى استخدمك ٠

فضحك ثم نظر الى باحترام ٠

وقال :

ـ لا ، لا ، لقد كنت فى الحقيقة ، رجل أعمال عمك ، لكن حدث كثير من الأشـياء خلال الشـهرين الماضيين ٠ وجاءنى مستر كامبل فى مكتبى أحد الأيام ليسأل عنك ٠ لم أكن قد سمعت عنك ، لكننى كنت أعرف والدك ، وأخبرنى مستر ابنيزر بأنـه رآك ٠ وأخبرنا بأنه أعطاك مبلغا كبيرا من المال ، وأنك ذهبت الى أوربا ، لانهاء تعليمك ٠ أما مستر كامبل ، فقال أنه لم يستلم أى رسالة منك ، وقال له ابنيزر بأنك القيت الماضى خلفك ، وقال انها رغبتك ، ولا أعتقد أن أحدا صدقه ٠

واستمر مستر رانكيلور ٠

وقال وهو يبتسم :

فى الحقيقــة ، كان غاضبا منى لأنى استجوبته ، ولم يستخدمنى بعد ذلك · لقد عرفنا مستر كامبل وأنا بأن هناك شيئا ما خطأ · ولكن ليس لدينا أى دليل ، ثم جاء القبطان هوسيسون ، وقال انك غرقت · عندئذ عرفنا أن عمك قد كذب · ولكن اذا كنت قد مت فلن نستطيع أن نفعــل شــيئا ·· شــعرت الآن اننى أستطيع أن أثق بك ·

وقلت :

ـ سيدى ، اذا أخبرتك قصتى ، فستكون حياة صديقى فى يديك · عدنى بأنه سيكون آمنا · وسأثق فيك من أجل أعمالى ·

فأعطانى وعده بوجه جاد ·

وقال :

ـ لكن ، رجاء أن تتذكر بأننى محام ·

أخبرته قصتى من البداية ، فاغلق عينيه وانصت· واعتقدت لفترة انه نائم ، لكن لا : بل سمع كل شىء ،

وتذكر كل شيء .. حتى أســماء الأماكن الهايلاندية الغريبة . وعندما تكلمت عن ألن بريك ، تحرك بحدة فى مقعده . سمعت كل اسكتلندا ، طبعـا ، بألن وبجريمة أبين ، وموضوع المكافأة .

فقال :

ــ لا تذكر أسماء الهايلانديين ، يا مستر بالفور . فكثير منهم ضد القانون ، ولكنى لا أسمع جيدا .. لا أعتقد أننى سمعت اسم صديقك بالضبط ، دعنا نسـميه مستر طومســون ، وعندئذ لن تكون هناك صعوبة .

كنت أعلم انه سمع اسم ألن بكل وضوح ، وظن أننى قد أتكلم عن جريمة القتل . وأصبح اسم ألن طوال بقية القصة : مستر طومسون . لقد أضحكنى ذلك ، وأعتقد أنه سيضحك ألن أيضا . وعندما انتهيت

قال المحامى :

ــ حسن ، لقد مررت بمغامرات كثيرة ، كما وقفت مواقف صعبة كثيرة . ولقد تصرفت بشكل حسن فى

معظمهـا ، كما أعتقد أن مستر طومسـون له خصال حميدة كثيرة ، ولو أنها عنيفة نوعا ما • لقد كنت مخلصا له ، وكنت على صواب ، وكان هو مخلصا لك ، وكنتما كلا كما فى خطر •• حسن ، أعتقد أن هذه الأيام قد انتهت • ولقد اقتربت من نهاية ما يعكر صفوك •

نظر الى بعطف ، وكنت سعيدا • فلفترة طويلة تجولت ونمت تحت السماء •• والآن أجلس فى بيت نظيف ثانيـة ، وأتحدث الى جنتلمـان يرتدى ملابس نظيفة ، ونظرت الى ملابسى ، وكنت خجلا •

لاحظ المحامى ذلك ، فنهض وقادنى الى حجرة أخرى ، ثم قدم لى صابونا وماء ومشطا ، وبعض ملابس ابنه ، ثم دعانى للعشاء ، وتركنى •

الفصل الثاني والثلاثون

الأخـوان

نظفت نفسى ، واغتسلت ٠٠ وعندما نظرت فى المرآة رأيت ثانية وجه ديفيد بالفور الحقيقى ٠٠ وكنت سعيدا ٠ وعندما انتهيت أخذنى مستر رانكيلور ثانية الى مكتبه ٠

وقال :

ـ اجلس يا مستر ديفيد ، سأشرح لك الآن وضع ميراثك ٠ لعلك تريد أن تعرف موضوع والدك وعمك ٠٠ انها قصة غريبة ٠٠ الحقيقة ، أنها كانت نتيجة قصة حب ٠

قلت :

ـ حقا ، لا أتخيل عمى فى قصة حب ٠

فأجاب المحامى :

ـ ولكن عمك لم يكن عجوزا دائما ، ولم يكن قبيحا أيضا ، بل كان نبيلا جميلا وهو صغير ٠ أعتاد الناس أن يقفوا أمام أبواب منزله ليتطلعوا اليه عندما كان يمر بعربته ، أنا نفسى كنت معجبا به أو قل غيورا نوعا ما ، لأننى كنت فتى عاديا ٠

فقلت :

ـ اننى لا أستطيع أن أصدق هذا ٠

فقال المحامى :

ـ حسن ، انه الفارق بين الشباب والشيخوخة ، وليس هذا كل شىء ، بل أظهر ابنيزر بسالة رائعة أيضا ، ففى عام ١٧١٥ ، هرب من البيت ليلتحق بالثوار ضد الملك ، فتبعه والده وأعاده ٠ ثم وقع الشابان فى حب نفس السيدة ٠ كان ابنيزر الابن الأصغر ، جعلته العائلة أنانيا ٠ لقد أعجبوا به ،

وأحبوه ودللوه ، أعطوه كل شيء ، فاعتقد بأنه يجب أن يفوز بهذه السيدة ، أيضا .. لكنه لم يكن محظوظا فى قصة حبه . اذ انها اختارت أباك ، ولم يستطع ابنيزر تحمل ذلك . فمرض أولا ورقد فى الفراش ، وجلس أفراد عائلته من حوله يبكون ، ثم أخذ يتنقل من حانة الى أخرى ليحكى قلقه لكل شخص . أما أبوك يا مستر ديفيد فكان طيبا محترما ، لكن كانت شخصيته ضعيفة ، ضعيفة جدا . فعندما رأى تعاسة أخيه ، ترك السيدة له ، ولكنها لم تكن حمقاء .. أعتقد انك ورثت منها حسن الادراك . لقد رفضت الاثنين ، وأضحك ذلك الجميع .

فقلت :

ـ بل ، انه لشيء محزن أيضا يا سيدى .

فأجاب المحامى :

ـ كلا ، فلقد تصرف عمك كطفل أنانى ، وفكر فى نفسه فقط .. تناقش والدك معه كثيرا . وفى النهاية اتفقا على شيء غريب : يأخذ أحد الأخوين

السيدة ، ويأخذ الآخر منزل وأرض آل شوز ٠٠ ولم يستشيرا أى محام ٠ وكان تصرف والدك هذا ليس حكيما ، ولا عادلا لأى أحد . وكانت النتيجة أن أباك وأمك أصبحا فقراء دائما ، وصرت أنت فقيرا أيضا ٠ ومر المستأجرون فى أراضى آل شوز بأوقات عصيبة ، فلم يكن ابنيزر طيبا معهم ٠

فقلت :

ــ عجيب ، لقد تغير عمى كثيرا ، عندما كبر ٠

فأجاب مستر رانكيلور :

ــ انى أدرك ذلك ، ويدرك هو انه لم يتصرف جيدا ٠ وسمع بعض الناس بالقصة الحقيقية ، ولم يتكلموا معه أبدا ، ورأى آخرون أنه قد استغل طيبة أخيه واستولى على ميراث آل شوز ، بل قالوا انه قد قتل أخاه ٠٠ وهكذا تجنبه الجميع ، وعاش وحيدا ٠

كان يملك المال ، ولا شىء آخر ٠ لقد كان المال أهم ما لديه ٠٠ وأصبح أنانيا وجشعا ٠ ولديك أنت الدليل على ذلك ٠

قلت :

ـ حسن يا سيدى . ما هو موقفى ؟ هل غيرت قصة الحب هذه ، وما نتج عنها من حقى فى ميراث آل شوز .. ؟

فقال المحامى :

ـ ان منزل آل شوز ، وأراضيه تخصك أنت ، ولا يهم اذا كان والدك قد وقع بعض الأوراق ليمنحها لعمك . فأنت الوريث قانونا . لكن عمك سيقاوم . والقضايا القانونية تكلف نقودا ، وقضايا العائلات تشهر بسمعة أصحابها ، بالاضافة الى مغامراتك مع مستر طومسون ، التى اذا سمع بها أحد فقد تسبب ازعاجا . ولا نستطيع اثبات انك قد خطفت . فليس لديك شهود ، وعمك رجل عجوز ، ونصيحتى لك هى : دعه يبقى فى البيت ، ويأخذ نصيبا من دخل الأرض .

أخبرته بأننى موافق . وفكرت أثناء ذلك فى خطة .

وقلت :

ـ يجب أن ننصب له فخا بطريقة ما ، والا فلن يشركنى فى الدخل مطلقا · يجب أن يقول بأنه مذنب ، وأن يفعل هذا أمام شهود ، كما يجب أن يقول أنه دفع للقبطان هوسيسون نقودا ليخطفنى !

فوافق مستر رانكيلور على هذه الفكرة ·

وقال :

ـ نعم ، هذا ضرورى ، انما علينا أن نقوم بذلك بسرعة ·· وربما نجد بعض بحارة الكوفينانت ليقولوا الحقيقة فى المحكمة · لكنهم قـد يتكلمون عن مستر طومسون صديقك · لا بد أن نجد وسيله أخرى ·

فقلت :

ـ حسن يا سيدى ، اليك وسيلتى ·

وأخبرته بخطتى ·· !

الفصل الثالث والثلاثون

النظارة

... انصت مستر رانكيلور الى خطتى ثم هز رأسه قائلا :

ـ هذا معناه انني يجب أن أقابل مستر طومسون ٠

ـ اعتقد ذلك يا سيدى ٠

ـ لا يا مستر ديفيد ، فخطتك ليست ممكنة ٠ لا أقول شيئا عن صديقك مستر طومسون ، ولا أعرف شيئا ضده ، واذا علمت أى شيء ضده ، فلا بد أن أقوم بواجبى وأقدمه أمام القانون ٠ هل يمكن لى مقابلته ؟ ان هذا من الحكمة ؟

فاجبت :

ـ كما تريد يا سيدى !

فهمت أن خطتى اعجبتـــه ، وتـــكلم عن مستر طومسون ثانية بعد العشاء ، ومتى سأقابله ؟ وأين ؟ وهل مستر طومسون شخص حسن التقدير ؟ وهل أوافق على شروط معينة اذا أمسكنا بالثعلب العجوز ابنيزر ؟

وسال أسئلة أخرى كثيرة ، وأجبت عليها كلها ثم جلس وأخذ يفكر لمدة طويلة ، ثم أخرج قلما وورقة ، وبدأ يكتب ، وعندما انتهى من الكتابة ، دق جرسا ، فدخل كاتبه الحجرة .

وقال له :

ـ تورانس ، انسخ هذا الليلة ، وعندما تنتهى ، سترتدى قبعتك وستأتى مع السيد ومعى ، كما سنحتاج الى شاهد آخر .

وصرخت عندما خرج الكاتب :

ـ لماذا يا سيدى ، هل فكرت فى تجربة خطتى ؟

فأجاب :

ـ اعتقد ذلك ، والآن لنتكلم عن شيء آخر غـــير العمل • دعني أحكي لك قصة عن كاتبي ، حدثت منــذ سنوات عديدة • كان عليه أن يقابلني في ادنبرة الساعة الرابعة ، وعندما تقابلنا ، كان تورانس مخمورا فلم يتعرف علي ، وكنت أنا قد نسيت النظارة ، فلم أتعرف على كاتبي !

ووجدت أن من الأدب أن ابتسم لقصته ، لكنها لم تمتعني كثيرا ، وضحك هو كثيرا على نكتته ، وكررها عدة مرات ، أثناء اليوم ، وكان يضحك في كل مرة • أما أنا فلم اعجب بها •

وفي المساء غادرت المنزل مـــع مستر رانكيلور ، وتبعنا تورانس ، وكانت الورقة في جيبه ، كما كـــان يحمل سلة ذات غطاء • واجتزنا البلدة ، وتحدث كثير من الناس مع المحامي ، وكان بعضهم يطلب مشورته ؛ ونصائحه ، ولاحظت أن جميعهم يحترمونه •

تركنا المنازل واقتربنا من حانة هاوس على شاطيء

البحر ، وتذكرت مغامراتى هناك ، والناس الذين كانوا معى ؛ مات كثير منهم ٠٠رانسوم وشوان وبحارة السفينة الجرحى المساكين ٠ لقد انتهى قلقى ، وأنا سعيد بذلك ، ولكنى عندما رأيت هذا المكان مرة ثانية شعرت بالحزن والخوف مرة أخرى ٠

كنت أفكر فى هذا عندما وضع مستر رانكيلور يديه فى جيبه **وضحك وهو يصيح :**

ـ لماذا ؟ شىء عجيب ، لقد نسيت النظارة ثانية ٠

والآن فهمت نكتته عن النظارة ، أخيرا ٠ لقد تركها بالبيت لسبب وجيه ، أن يحصل على مساعدة ألن بدون نظارته ، فلا يستطيع رؤيته جيدا ، ولا يستطيع التعرف عليه مرة ثانية ٠ ويكون بذلك فى مأمن من القانون أيضا ٠

وعندما تجاوزنا المنزل بعثنى مستر رانكيلور لمقابلة الن ، الذى كان مختفيا فى الحقول قرب الطريق ، وكنا قد اتفقنا على ذلك من قبل ٠ وأطلقت تصفيرة خاصة

للحن هايلاندى قصير ، فعرف الاشارة ، وظهر من بين الشجيرات ٠

كان جوعان وفى حالة نفسية سيئة ، فأخبرته بأن كل شيء سيكون على ما يرام ٠ وشرحت له بأنه يجب أن يمثل دورا آخر لمساعدتى ٠ سره ذلك ، وعاد بسرعة الى مرحه المعتاد ٠

وقال :

ـ انها فكرة رائعة ، وأنا الشخص المناسب لذلك، سأقوم بهذا الدور لأجلك ٠

لوحت لمستر رانكليور ، فجاء ورحب بألن ٠

وقال :

ـ لقد نسيت نظارتى ، ولا أستطيع أن أرى جيدا بدونها ، ولو قابلتك غدا ، فربما لا أتعرف عليك ٠

انجرحت كبرياء ألن الهيلاندية ، وخيل له انها اهانة ٠

وقال :

ـ انى أقبل اعتذارك يا سيدى ، هذا ضرورى ٠

أمسك المحامى بذراع ألن ، وسارا أمامنا أنا وتورنس ، وتأملت الحقول ، والغابات حول منزل آل شوز ، وامتلأ قلبى بالاعتزاز ، انها ملكى كلها الآن . اجتزت ثانية عامودى البوابة الحجريين الضخمين اللذين يعلوهما درع النبالة الخاص بالعائلة . وكان الليل قد سجى عندما وصلنا الى المنزل .

كانت ليلة مظلمة دافئة ، تهب فيها نسمة رقيقة على أوراق الشجر ، غطى صوتها على أصوات خطواتنا . ولم يكن هناك أى ضوء بالمبنى ، وكانت الخفافيش تحوم من حوله .

تهامسنا سويا ، ثم تسللنا أنا والمحامى والكاتب بهدوء ، واختبأنا فى ركن المنزل ، ومشى ألن بمفرده الى الباب الأمامى ، ثم قرعه .. !

الفصل الرابع والثلاثون

المصيدة ..

أخذ ألن يقرع الباب بدون اجابة ، ثم سمعت أخيرا نافذة تفتح بالطابق الأول بهدوء ، وعرفت أن عمى يطل منها ، فاستطاع أن يرى ألن على السلم ، وكنا نحن الشهود الثلاثة فى الركن بعيدين عن مجال رؤيته .

وبعد دقيقة ، تكلم ابنيزر مستفسرا :

ــ ما هذا ؟ ان هذا الوقت المتأخر من الليل لا يناسب الأشراف من الناس . لماذا أتيت ؟ لدى بندقية .

فقال ألن وهو يخطو للخلف وينظر الى أعلى :

ــ هل أنت مستر بالفور ؟ انتبه لهــــذه الغدارة القديمة فقد تنفجر •

فصرخ عمى غاضبا :

ــ ماذا أتى بك الى هنا ؟ من أنت ؟

فقال الن :

ــ الاسم لا يهم ، لقـــد أتيت لأخبرك عن شيء يخصك ••

فسأل عمى :

ــ وما هو ؟

فقال ألن :

ــ ديفيد •

فصرخ عمى بصوت مختلف جدا :

ــ ماذا تقول ؟

فقال ألن :

ـ هل أخبرك بباقى الاسم ، اذن ؟

وبعد فترة صمت •

قال عمى :

ـ ربما سأسمح لك بالدخول •

فاجاب ألن :

ـ سنتكلم عن هذا الموضوع هنا على عتبة الباب • هنـا والا فلا ، فأنا معتز بنفسى مثلك ، بل ومن عائلة أفضل من عائلتك •

وفكر ابنيزر لفترة قصيرة ، ولم يعجبه ذلك •

ثم قال :

ـ حسن ، سأنزل •

مرت فترة أخرى ، سمعناه بعدها ينتزع السلسلة من البـــاب ، ثم فتحه وخرج • خطا ألن الى الخلف قليلا ، وجلس ابنيزر على أعلى سلمـــة ، وبندقيته فى يديه •



والآن ، تذكر أن معى بندقية

وقال :

ـ والآن ، تذكر أن معى بندقية ، واذا اقتربت فستموت فورا ٠

فقال ألن :

ـ انه ترحاب مؤدب جدا ٠

فأجاب عمى :

ـ كلا ، ولكن لا بد أن أحمى نفسى ، والآن افصح عن موضوعك ٠

قال ألن :

ـ لماذا أنت ترى انى جنتلمان من هايلاند ، وبلدى ليس بعيدا عن جزيرة مول ، عثر أحد أفراد أسرتى على غلام ، كان نصف ميت على الشاطىء ٠ وانقذ قريبى حياة الولد ، وأخذ هو وبعض أصدقاء له الفتى ، ووضعوه فى قلعة قديمة ٠٠ وأصدقائى شرسون بعض الشىء ولا يبالون بالقانون ، وبعد اكتشافهم أن الفتى ابن أخيك ، فهم يحتفظون به وهذا يكلف نقودا ٠ فهل

ستساعدهم ؟ وأصدقائى ليسوا أغنياء ، واذا لم تدفع فلن ترى ابن أخيك ثانية .

فتكلم عمى ببطء وقال :

ــ لا يهمنى ، انه لم يكن فتى طيبا .

فقال ألن :

ــ آوه ، يبدو أنك تتظاهــــر ، وتظن أن هـــذا سيخفض الثمن .

قال عمى :

ــ كلا ، هذه هى الحقيقة ، فأنا لا أهتم بالولد . ولن أدفع شيئا ، ولتفعل معه أى شىء .

فقال ألن :

ــ لماذا يا سيدى ، الدم أثخن من الماء ! لا يمكن أن تترك ابن أخيك ، انه لعار . واذا سمع الناس ذلك، فلن تصبح محبوبا فى هذه المنطقة .

فاجاب ابنيزر :

ــ أنا لست محبوبا حــاليا ، ولن يعرف أحـــد

بالموضوع ، لن أتكلم عنه ، وكذلك أنت وأصدقاؤك

فقال ألن :

ـ حسن ؛ اذن سيخبر ديفيد كل الناس ٠

فقال عمى بحدة :

ـ كيف ؟

ـ أوه ، سيحتفظ أصدقائى بابن أخيـــك ، اذا حصلوا على نقود مقابل ذلك ، أما اذا لم تدفـــع لهم نقودا ، فسيطلقون سراحه ٠

فقال عمى :

ـ أنا لا أحب ذلك أيضا ٠

فقال ألن :

ـ حسن ، اذا لم ترد الفتى ، فماذا سنفعل به ؟ كم ستدفع ؟

ولم يحر عمى جوابا ، ولكنه تململ فى جلسته ٠

وقال ألن :

– هيا يا سيدى ، اننى جنتلمان • اننى لست خادما لأنتظر • أحب الآن ، والا وضعت سيفى عبر جسدك •

فصرخ ابنيزر وهو ينهض بسرعة مرتعشا :

– اعطنى بعض الوقتيا رجل ؟ ما هى الحكاية ؟ تذكر بندقيتى ؟

فأجاب صديقى :

– بندقيتك بطيئة أمام سيف ألن الصلب الناصع •

– حسن يا رجل ، ماذا تريد ؟ أخبرنى فقط ، وسنتفق •

– فى كلمتين ، هل نقتل الفتى أم نحتفظ به ؟

– أوه سيدى ، لا داعى ان تتكلم هكذا !

كرر ألن :

– نقتله أم نحتفظ به ؟

فقال عمي :

ـ أوه ، احتفظوا به ٠

فقال آلن :

ـ حسن ، سيكلف ذلك أكثر ٠

فصرخ عمي :

ـ يكلف أكثر ؟ حسن ، اذا كان يجب أن أدفع، فسأدفع ، انه ابن أخي ٠

قال آلن :

ـ حسن ٠ والآن ، ما هو الثمن ٠ أولا يجب أن أعرف ، كم دفعت لهوسيسون ؟

فصرخ عمي :

ـ هوسيسون ؟ مقابل ماذا ؟

فاجاب آلن :

ـ مقابل عمله ، عندما خطف ديفيد ٠

فصرخ عمى :

ـ انه افتراء ، انه كذب . لم يخطف أحد الفتى !

فقال ألن :

ـ حسن ، انهـــا ليست غلطتى اذا لم يحفظ هوسيسون هذا السر الذى بينك وبينه ..

فقال ابنيزر :

ـ ماذا تقصد ؟ هل أخبرك هوسيسون ؟

فقال ألن :

ـ كيف لى أن أعرف اذا لم يخبرنى ؟ هوسيسون ، اننا نعمل سويا ، ولى نصيب فى تجارته . انك كنت عبيطا ، والآن ماذا دفعت له ؟

فقال ابنيزر :

ـ حسن ، الحقيقة هى أننى أعطيته عشرين جنيها ، وعندما يصل أمريكا يمكنه أن يبيع الولد مقابل عشرين آخرين .

خطا المحامى الى الأمام قائلا :

ـ شكرا مستر طومسون ٠ هذا يكفى تماما ٠

ثم قال فى نبرة مؤدبة :

ـ مساء الخير يا مستر بالفور ٠

ثم قلت :

ـ مساء الخير يا عم ابنيزر ٠

ثم اضاف تورنس :

ـ انها ليلة جميلة ، مستر بالفور ٠

الفصل الخامس والثلاثون

استلامى الميراث

لم يقل عمى أى كلمة سواء طيبة أم سيئة . كان يجلس على أعلى سلمة ، وينظر الينا . وأخذ ألن البندقية منه ، وسحبه المحامى من ذراعه وقاده الى المطبخ.وتابعناه كلنا متطلعين اليه . كنا جميعنا مسرورين بحيلتنا ، ولكننا احسسنا بالشفقة من أجل عاره ، أيضا .

قال المحامى :

ـ هيا .. هيا .. مستر ابنيزر ، **لا تحزن هكذا .. أعدك أن** نسهل الأشــياء من أجلك ، والآن اعطنا المفاتيح ، وسيحضر لنا تورنس زجاجة من نبيذ والدك ، وسنشرب نخب مستقبل ابن أخيك .

والتفت الى وأمسك بيدى قائلا :

ـ مستر ديفيد ، اهنئك بميراثك · انه ملكك ·

ثم قال لألن :

ـ وأنت يا مستر طومسون ، أهنئك أيضا ، لقد أديت دورك جيدا ·

صافحت ألن وشكرته على معاونته لى · ودخل مستر رانكيلور ، وعمى الى حجرة أخرى ليتكلما . وذهب تورنس لاحضار النبيذ ، واشعلت مع ألن النار ·

ورسمنا خططا لهروب ألن · وكان هناك أحد المحامين فى كوينزفيرى ، وهو رجل مأمون سأقابله فى اليوم التالى ، واعطيه نقودا · وسيعثر على سفينة لتأخذ ألن الى فرنسا ·

عاد تورنس ومعه النبيذ ، وفتحنا الزجاجة ، ونزع الكاتب الغطاء عن السلة وكان بها طعام طيب · فجلست مع ألن وتورنس وأكلنا وشربنا ·

غاب المحامى ، وعمى مدة ساعة • وعندما اتفقـا سويا ، وقع عمى على أوراق ضرورية • وكان على عمى أن يدفع لى النصيب الأكبر من دخل ممتلكات آل شوز •

وهكذا ، فأنا الآن مثل فتى الاغنية القديمة • قد استعدت بيتى وميراثى ••

وعندما رقدت تلك الليلة فوق صندوق المطبخ ، كنت رجلا غنيا ، ونام ألن ورانكيلور وتورنس نوما هنيئا على سررهم الجامدة بجانبى • ولكنى لم أستطع النوم ، رقدت مستيقظا طول الليل • كنت أفـكر فى مستقبلى •

فهرس

مطابع الهيئة العامة للكتاب

رقم الإيداع ٢٠٠٠/٩٨٠٤
I.S.B.N. 977-01-6733-9